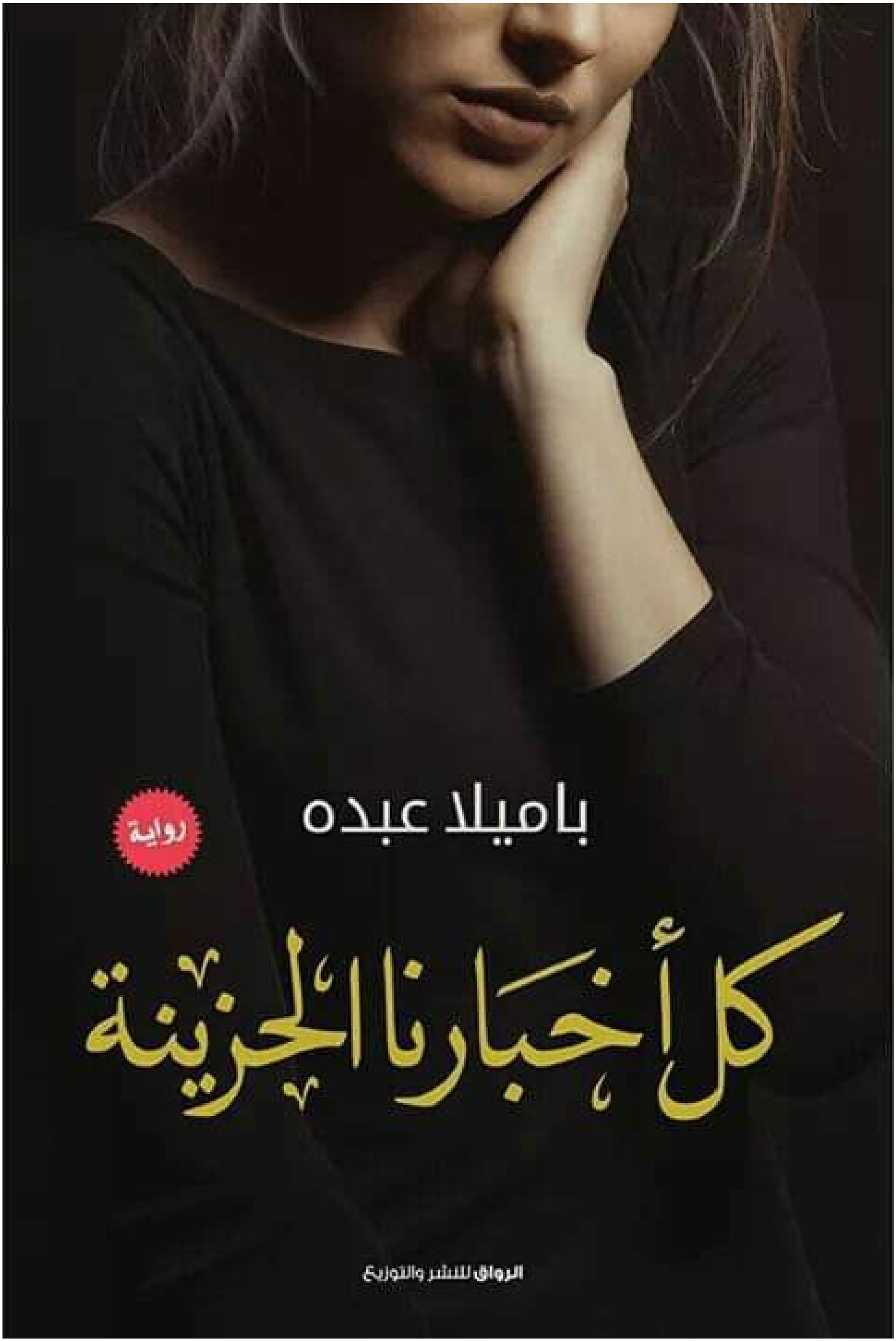
باميلا عبده
رواية
كل أخبارنا الحزينة
الرواق للنشر والتوزيع

كُلُّ أخبارِنا الحَزينة

كُلُّ أخبارِنا الحَزينة (رواية)

باميلا عبده

■ الطبعة الأولى ..... يناير 2018

تصميم الغلاف: كريم آدم

التصحيح اللغوي: محمد حمدي

رقم الإيداع: 25642 / 2017

الترقيم الدولي: 978 – 977 – 824 – 022 – 1

جميع حقوق الطبع محفوظة

للنشر والتوزيع

186 عمارات امتداد رمسيس 2 – أمام أرض المعارض – مدينة نصر

هاتف: 0220812006

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq.Publishing

كُلُّ أخبارِنا الحَزينة

رواية

باميلا عبده

الرواق للنشر والتوزيع

«الحزن يستمر إلى الأبد»

فان جوخ

بينما أخطو على السلم الرطب، أرسلت شمس الشتاء أشعة خجولة من الشبابيك الواسعة في واجهة العمارة، في ذلك الضوء بدا كل شيء مألوفًا، ملمس الرخام البارد، تَشققات الحائط، انحناءة السلم السلسة، ورائحة صباح يتهادى بعد أمسية مطيرة.

لوهلة ظننت أنني سألتقيه عند نهاية السلم، حيث اعتاد أن يميل بجسده، مُحدّقا لخطواتي، مُمازحًا إياي، تخيلت ومضة الكاميرا، وعَبّقت الجو رائحة السجائر والقهوة، المزيج ذاته الذي طالما نفرني من الرجال في المواصلات العامة، يفوح منهم بغلظة وعُفونة جاعلاً أغسطس أسوأ شهور السنة في المدينة الرمادية، ولكن في حالته أضاف عَرَقه على ذلك المزيج حَلاوة مُحبّبة، حَلاوة لا أفهم لها سببا.

بأنفاس مُتقطعة من جرجرة حقيبتي الثقيلة خلفي أواصل الصعود، فالعمارة لا تحوي مصعدًا ولا أتفق جيدًا مع البواب، فلطالما صددته حين حاول دَس أنفه في أموري الخاصة ولم أفهم علاقته الجيدة بآدم، أو كيف يعرف عنه الكثير، ولكنه حين رآني منذ قليل أهبط من سيارة الأجرة لاح على وجهه شبح ابتسامة كدت أتأثر لها، لكني خمنت أنه عَنى بها شخص آخر، فتعاملي لفترات طويلة مع أشخاص مصابين بالجفاف العاطفي، أشخاص من الصعب معرفة ما يشعرون به،

لأنهم لا يفصحون أبدًا، خوفًاعلى الهشاشة الساكنة في أعماقهم، جعلني أكثر انتباها للإيماءات الصغيرة باحثةً عن مغزى ما خلفها، إيماءات باهتة لا ترويك حين تكاد تموت من العطش، فتصبح مثلهم مُتبلدًا وخائفًا.

وضعت المفاتيح في باب الشقة والتفت خلفي نحو باب شقته، أعرف أنه ليس بالداخل، فصوته الذي جاء عبر الهاتف افتقد بهجته المعتادة، كان صوتًا أجوف وبعيدًا كترديد صدى لصوت غاب من وقت طويل، ومع هذا تسارعت دَقات قلبي مع خطواتي المُتجهة لبابه، ربما كان في الداخل يتجاهل العالم كما يفعل أحيانا، وحين يتعرف صوت طرقي على الباب، سينفض عنه الركود وينهض لنكمل كل تلك الأحاديث التي توقفنا عندها ولا أذكر ماهيتها، بعد عدة طرقات لم يفتح، لم يأت صوته أو رائحته، كان ملمس الباب باردًا كأنه يدفع يدي بعيدًا، الباب الذي ترددت أمامه كثيرا وارتجفت، رتبت أحاديثي أمامه وتلعثمت، ثم أعود بعد عام كامل بوجه جديد وهيئة مختلفة فيلتقيني بكل هذا البرود.

منذ عام في تلك الشقة، أقمتُ مع غول، مع طائر مُنكس الأجنحة، وحشٍ مُخيف، وحش يغيب أحيانا ثم يعود، وحين يأتي... حين يتسلل من ذلك الركن المظلم في عقلي، يُفسد كل شيء، يخبرني في صباحات أنه ليس لدي ما أستيقظ لأجله، أحمله فوق كتفي وأتطلع في المرآة فأرى امرأة تَشيخ وحيدة، يحمل وجهها آثار بُقع بَيضاء تركها البُهاق في آخر نوبات انتشاره، يغير مذاق القهوة، يصحبني في الطريق للعمل ثم يُلقيني جثة هامدة حين أعود للبيت، ذلك الوحش يعود من وقت لآخر ليطمئن على ممتلكاته القديمة.

رائحة البيت الآن مُختلفة قليلاً، بل خفيفة، رائحة شتاء سكندري قادم دون عَطن في الهواء، دون بقايا أشخاص مَعطوبين مروا من هنا، فتحت باب الشُرفة ليدخل الهواء وينتشر في عقلي ليحمل ما قد تخبئه الجدران من بقايا قديمة تذكرني بتلك الأيام.

بعد حمام بارد، شربت قهوتي الساخنة في الشرفة، أراقب البحر والشارع في تلك الساعة المُتأخرة من اليوم، أستعد لأيام طويلة سأقضيها بحثًا عنه مُتتبعة آثاره، هذه المرة سأطارده عَلنًا وسأدعي أن كل ذلك بدافع من الصداقة وحدها، لم أجرؤ على النوم في حجرتي القديمة، استلقيت على الأريكة في مواجهة الشرفة، واضعة حاسوبي الصغير على قدمي، وَلجت لصفحة أمجد الشخصية، أنظر للتحديث الأخير، ربما نشر صورة تَجمعه مع آدم، لكن صفحته كما تركتها منذ بضعة أيام بلا أي صور تخص «آدم» أو التقطها بنفسه، أرسلت له أخبره بعودتي ورغبتي في لقائه، معرفتي بأمجد كانت عن طريق «آدم»، طلبت منه ذات يوم أن أرى صوره، أخبرني أنه يُحمضّها بالطريقة التقليدية ويحتفظ بها كأفلام في عُلب، لكن لديه صديقًا مهتمًا بالإنترنت يحول تلك الأفلام لصور على الشاشة يضعها في صفحة أنشأها له، بحثت عن تلك الصفحة وصرت من مُتابعيها، كنت كثيرة الأسئلة، حقيقةً لم أكن مهتمة بالتصوير بل كان الاهتمام الأساسي بآدم، بأسفاره ورحلاته ومعارفه، وشيئا فشيئا أصبح «أمجد» مُعلمي دون ألتقيه، يحادثني عن تقنيات التصوير، أنا التي لا تملك كاميرا ولا تعرف شيئا عن طريقة عملها، كان ودودًا وصبورًا ومتوفرًا للإجابة عن أسئلتي، على العكس من «آدم» الذي بالرغم من وقوفه على بعد إنشات مني يبدو بعيدًا كأنه في آخر الدنيا، غامضًا لا أعرف متى يأتي، أين يذهب أو فيم يفكر.

حتى الصباح شاهدت صورًا كثيرة لآدم من بين كل تلك الصور، هناك صورة واحدة طالما حدّقتُ إليها، صورة واحدة قادرة على إيلامي، رغم أن من التقطها هو «أمجد» وليس «آدم»، في مُقدمة الصورة يقف «أمجد» بشعره المسترسل وجبهته العريضة، تمتد يده الطويلة تحمل الكاميرا، يظهر في عمق الصورة «آدم» جالسًا على الرصيف يبتسم ابتسامة تضيق لها عيناه ولا يظهر منه سوى رموشه التي تُلقي بظلال على وجنتيه، تجلس بجواره امرأة تَميل عليه بحيثُ تُلامس كتفه، كأنها تعرف أنه يَحق لها أكثر وأنه يمكن أن تُلقي برأسها على هذه الكتف لكنها تكتفي فقط بملامسته، لها عينان زرقاوان وشعر مُرسل يميل لونه البني للأحمر قليلا، يُغطي وجهها الكثير من النَمش، بينما تكشف ابتسامتها عن غمازة يتيمة.

وضعت اللاب توب على الأريكة ونهضت أُعدل من ملابسي، وقفت أمام المرآة في الصالة أتطلع لنفسي، أقارن بينها وبين الصورة، بدا وجهي شاحبا بهالات سوداء خلفها الكحل، عينان بنيتان صغيرتان وشعر أسود ليليّ بشعيرات بيضاء كثيرة متناثرة، وعلى جبهتي بقع بيضاء صغيرة سببّها مرض البُهاق، وحين ابتسمت كان الحزن يرقد في عيني، يطل كشبح، ابتسامتي لا تشبه بأي حال من الأحوال تلك الابتسامة في الصورة، فحين أقارن نفسي مع الفتيات الأخريات كنت أخسر دائما، فقبل كل شيء كنت بلونين، الأبيض والأسمر.

شعرت بتأنيب الضمير لأني عدتُ للتفكير في ذاتي مُتناسية غياب «آدم» وأني لا أعرف أي شيء عنه، لم تأت رسالة بعد منه أو من «أمجد»، فقضيت الليل كله مُصغية لصوت وصول رسالة، أنظر للجدران، أتذكر ذلك اليوم حين تكسّر كل شيء.

حين يَتكسّر شيء بداخلك للمرة الأولى تسمع صوتًا مدوّيًا كانفجار، صوت يهزك من الداخل، يُخيفك، ترغب في التمسك بأي شيءكيلا تسقط في الداخل وإلى الداخل، وحين تنجو وستنجو، ينقص الإحساس بداخلك، يبهت لون الأشياء من حولك درجة واحدة، وتصبح الصورة ضبابية ومُغبّشة قليلا، مع التكسّر الثاني يكون الصوت أخف، لكن الدمار بالداخل كما هو، كأنك تحوي قارضًا يأكل من روحك تدريجيا قضمة قضمة، حتى يكون الصوت الذي تسمعه مع كل تكسّر هو قرْض واهن، وعند حدوث التكسّر الأخير تكون نهايات الأعصاب في داخلك قد ماتت وأصبحتَ خدِرًا، لا تسمع ذلك الصوت الذي يحذّرك أنك اقتربت من النهاية وأنك اليوم ستفقد كل شيء.

فمنذ عام في صباح شتويّ دافئ بلا أي مقدمات توحي باقتراب المطر، رأيت الشمس تتوسط السماء، تقف فوق الرؤوس، تُبلل كل شيء بالعرق، وتجعل القاهرة الرمادية باهتة ومُتربة أكثر، من شباك الميكروباص حدقت بالآخرين، الكائنات التي استيقظت مُبكرة مُرغمة لتبدأ يومًا جديدًا، تفعل أشياء لا تُحبها وتود لو تنتهي منها بسرعة لتعود وتختفي في جُحرها، شعرت أني ثقيلة كثُقل النوم على وجوههم، كثُقل التكشيرة والرغبة في العراك، بدوا مُتشابهين جميعا، يفكرون بذات

الأشياء، في الأقساط المُتأخرة، في مشكلات الأولاد وفي العمر الذي يمر سريعًا، شعرت بالشفقة على نفسي لو قُدّر لي اليوم التعامل مع واحد من هؤلاء، ولكنك لو حدّقت في وجهي لاكتشفت أني مِثلهم، وهذا ما أخافني، كنت أجلس بجانب الشباك في مواجهة الشمس، يجلس بجواري رجل مُباعدًا بين قدميه، فانتهيت مُتكوّرة على ذاتي كأنه بعد لحظة واحدة ستنفتح هوّة في المكان وتبتلعني، كنت كمن يشاهد فيلمًا رديئًا بألوان صاخبة مُزعجة وموسيقى تصويرية رخيصة من النوع المُثير للغثيان، وحين دخلت من باب مَحطة المترو وضعت حقيبتي على جهاز المسح، بينما انشغل الشرطي بتصفح هاتفه عن متابعتها، الحقيبة ثقيلة مُحملة بأشياء تكفي للنجاة ليوم واحد، أقضيه سهرًا أصرخ في الآخرين وأتحمل ضجيجهم، حتى أصبح ذلك الضجيج يسكن داخلي، يوقظ أشياء مُخيفة في تلك العتمة، ركبت عربة المترو المُزدحمة، فمقارنة بالقطار طالما ازدريت هذا الشيء، مُغلق ومُتكدّس ولا ترى شيئا من الزجاج سوى انعكاسك فاختنقت أكثر، حين انغلق الباب ولاح أمامي انعكاسي تدفعه أجساد المُحيطين بي، رأيت وجهي بلا ملامح كأن كل تفاصيله انصهرت تماما كالشمّع، بل يمكن القول أنني أصبحت شبيهة بالمدينة باهتة ومملة، كنتُ مملة الملامح، لستُ قبيحة أو جميلة، بل النوع الذي لا يعلق بالذاكرة أو يُثيرها، كصورة قديمة، كلوحة بألوان قليلة، كمشهد بهت لكثرة إعادته، كنت هذا الوجه، هكذا يراني الآخرون، فتفهمت لماذا حتى مع اقترابي من الثلاثين لم يُحبني أحد.

أحببت الطريق في شبرا القديمة حيث الأشجار المتناثرة والبيوت القديمة بشبابيكها الواسعة والأسقف العالية، توقفت أمام بيت أحب

المرور بجواره، بدا ساكنًا غارقًا في الصمت ومع ذلك يدعوك للداخل، بعد أن يتجاوز نظرك بوابته السوداء التي تعلوها ياسمينة جافة، سترى رؤوس أشجار، وتشم رائحة زهور خافتة، عاودني حُلمي القديم بسكن بيت كهذا، وأني ذات ظهيرة سأضع طاولة في حديقته، تَحميها من الشمس تَكعيبة عنب، وحين تمر الشمس بين أوراقها سترسم ظلالاً مختلفة على مفرش الطاولة الأبيض، أراني أجلس إليها أرتدي فستانًا خفيفًا ربيعيًا مُزيَّنًا بزهور عباد الشمس، يقف خلفي رجل واضعا يديه على كتفي، فأميل برأسي على إحدى يديه، رجل تُطمئنني رائحته وأعرف دون أن ألتفت أنه يُحبني، يدخل من الباب أبي وأمي وإخوتي، وفي هذه اللحظة تمامًا تتوقف الأرض عن الدوران ويتجمد الزمن وأبقى هنا للأبد.

شعرت برجفة رغم أن الجو أصبح حارًا الآن، كأن هذا الحلم خلّف في نفسي بردًا وخوفًا، وكأن الطريق للمشفى ازداد طولا وعليّ أن أقطعه وحدي.

انتقل الثُقل الآن من حقيبة ظهري إلى داخلي وركبتيّ، نظرت لحذائي أرغب في إدارته للخلف والعودة، أركض حتى أصل لغرفتي، أُغلقها وأختبئ، ولكني هكذا أفكر وأشعر كل يوم، وهذه رغبتي التي لا تتغير أبدا، وهذا الشعور اليومي متى سأعتاده؟

وقفت أمام بائع السندوتشات مُنتظرة دوري، أتّنقل ببصري بينه وبين الساعة، فدقيقة واحدة تأخير ينجم عنها تكدير طيلة اليوم، كلما فكرت كيف أن اليوم مازال في بدايته، ما زال طويلا مُلقيا بجسده المترهل، اختنقت أنفاسي، مدت امرأة يديها تلمس بها أقراص الطعمية

الموضوعة في الصينية مُقابل الرجل، تختبر برودة الطعمية مُبتسمة للرجل الذي تجاهلها كأنه لا يرى ما فعلته، بينما حدجتها بنظرة جعلتها تتراجع قليلا وتخفض رأسها، في الوقت ذاته تقلصت أمعائي قليلا.

تطلعت لوجهي في مرآة الحمام ولجذور شعري البيضاء، أمسكت بأمعائي شاعرة أن تقلصها يزداد، وطعم العصارة في فمي يُصيبني بالغثيان، تقيأت في الحوض أمامي عدة مرات وكلما رفعت رأسي عاودتني الرغبة ثانية، شعرت أن الميكروباص والرجل والمرأة والقاهرة كلها تُقيم في صدري وتضغط على معدتي، وكلما ضغطت ازدادت رغبتي في التقيؤ، بعد نصف ساعة كانت رائحة القيء تفوح مني ومن شَعري، وعيناي حمراوين، غَسلت خُصل شعري، ثم وضعت رأسي أسفل الصنبور تاركة الماء البارد ينساب.

بعد تأخير نصف ساعة وقفت في رواق المشفى، حقيبتي الثقيلة خلف ظهري، تفوح مني رائحة سيئة، عيناي مُحتنقتان تُحيط بهما هالات سوداء، تَمر الشمس من الشبابيك المفتوحة مُحوّلة الشتاء لأغسطس آخر، فتنتشر رائحة القيء ورائحة كلور ممزوجة بدم زَفر تفوح من الأرضيات المُبلّلة، تابعت فم الطبيب الأعلى يَسبني لتأخيري، بينما وقف المرضى والأطباء وجميع من في الرواق يُشاهدون، لم أعتذر، لم أفتح فمي لأقل شيئا، لم أتحرك خطوة واحدة، بل حدقت في سطح فنجان القهوة الذي أحمله في يدي... بدا هادئًا بشكل مخيف، وشعرت أني أتضاءل للحد الذي قد أختفي فيه، لكني مازلت هنا أشعر بوحدة لم أختبرها من قبل، كأني آخر من تبقى على الأرض.

حين اقترب الليل لمعت أضواء النوافذ البعيدة على شباك المكتب حيث

كنت أعد النسكافيه، كنت أراقب تلك البيوت محاولة تخيل الحياة فيها، أمرر يدي أحيانا على البخار المُتصاعد من الكوب باحثة عن الدفء، ففي هذه اللحظة كان الجو خريفيًا باردًا، من مكان ما تأتيك لفحة هواء باردة ولكنها في الوقت ذاته رطبة كأن الصيف قد مر بها منذ قليل، في الجزء المُغلق من الشباك رأيت انعكاسي، بدوت مُتعبة بجفنين مُتهدلين وعينين منتفختين، واستطال وجهي قليلا، لم أهرب من نفسي هذه المرة بل وقفت أحدق وأحدق مُتمنية لو أختفي، أن أتحول لهواء وأتسرب من النافذة بهدوء، وعلى مهل أرحل لمكان بعيد، لِمَ أفتقد البيت دائما كأني قضيت عمري كله على الطريق؟ من أين يأتي كل هذا التعب في اللحظة التي أفتح فيها عيني على السرير؟ ولماذا يسكن البرد عظامي بالرغم من كل هذه الأغطية؟

ما الخطب؟!

رحمة هو اسم البنت التي لن أنجبها، لن أضفر شعرها مُنهية الضَفيرة بشريط أبيض من الساتان، ولن أشترى لها جوارب بيضاء مُزيّنة بالورد، فرغم أن أكثر ما أخشاه بعد الموت بردًا هو الوحدة، فأخشى أيضا أن أُورثها أحد مَرَضيَّ أو كليهما، أن تُصاب باكتئاب يأكلها من الداخل ويُحيلها عجوزًا ساخطة على الآخرين، غير مُتقبّلة لقدرها، وأن يتغير لون جلدها تدريجيا للأبيض، تستيقظ ذات يوم لترى نفسها تشوّهت مُتسائلة هل يُشفق عليها الآخرون أم يتحاشونها، ثم تَعشق رَجلاً لا يبادلها الحب، فكيف تُحب شخصًا بكل هذا الحزن؟! تعود للبيت تبكي كل ليلة في حجرتها قبل النوم، تنتظر الوَنس الذي لا يأتي، تُحدق طيلة النهار في هاتف صامت، فتُصاب روحها تدريجيًا بالعطب.

فعلى كثرة الآخرين الذين أُحادثهم طيلة اليوم، أستمع إليهم وأحيانا أثرثر، أجدني أتعطش من الداخل للحديث، أتعطش للاستماع في خضم كل تلك الثرثرة، كأن هذا التواصل يزيدني تحرقا لتواصل من نوع آخر، لتواصل حقيقي أقول فيه كل شيء دون أن أُرجم أو أوصم، تواصل يُشبع روحي لا يُميتها تجويعًا ولا يتركها تتجمد من البرد.

ماذا لو كانت بداخلي هوة تبتلع كل شيء، تكبر مع كل مرة أبكي فيها أو أحزن، تتغذى على كل نظرة جافة أتلقاها أو كل صد؟ ماذا لو أن أوان إنقاذي قد فات؟ فبعد تخطي مرحلة معينة، مهما فعلت لن يعود شيء كما كان ولن أصبح أبدا بخير، هل يمكنني يوما ما أن أبتسم دون أن يطل الحزن من عيني، أو أن أضحك دون أن أشعر أن في داخلي مكانًا منعزلاً عن الضحك، يؤلمه صوت تردد هذه الضحكة؟ هل سأكون بخير؟

بعد نومي لساعتين على سرير من الجلد استيقظت، ما لا تعرفه عن سرائر الجلد، أنه مهما نمت عليها لن يصبح مكانك دافئا أبدا، ففتحت عيني شاعرة بضغطة في صدري، كأن أحدهم لكمني بعنف أو ضغطني من كلتا يدي فتحطمت ضلوعي، لدقائق أجدني عاجزة عن التفكير، أتصرف بآلية من استيقظ من نومه للتو، أعرف أن هذه الساعة من اليوم مُخيفة لمن هم مثلي، لمن يقضون اليوم كله في محاربة الأفكار السيئة، لمن لا يجدون من يتجاوزون معهم يوما ما زال في بدايته، من يخبرونهم أن كل شيء سيكون بخير، ففي اللحظة التي جلست فيها على الكرسي بانتظار دخول المرضى، ازدادت حدة الأفكار، وضعت أمامي يدي

الملونة بالأبيض والأسود، تتبعت الخط الأسود فيها، الأشكال التي يرسمها، تذكرت أني لم أزين يدي يوما بخاتم أو بطلاء، كأني أخاف أن يجذب لها النظر أكثر، فيحدق فيها الآخرون، شعرت برغبة في إلقاء رأسي بعيدا عن جسدي، لأن جسدي مُتعب للدرجة التي لا يتحمل فيها عبء هذا الرأس، نظرت ثانية لسطح كوب قهوة جديد، ورأيت أن سطحها بدأ يضطرب وبدأت الأصوات خارج الحجرة تخفت وأخذ العالم يبهت ولا أتذكر ما حدث.

أول شيء وقع عليه نظري بعد عودتي للوعي هو قدماي الباردتان تُغطيهما الدماء، لا أذكر أين أو متى فقدت حذائي، ربما قطعت الطريق كله لهنا ركضًا أو مَشيًا، كنت أشهق وأتنفس بصعوبة، الآخرين يُحدقون في وجهي ثم يتجاهلونني ويعودون لما يفعلونه، القطار شبه فارغ، لم أعرف إلى أين يتجه، كنت أرتدي ملابس العمل، بزة من قميص وبنطال أسودين، يدي قابضة على حقيبتي الصغيرة، بعد قليل من تقطع الأنفاس هدأت حين تعرفت على المحطات، ووجدت أني أتجه للإسكندرية، رجعت بظهري للوراء وتنفست ببطء، وكما يغفو طفل صغير لا يعبأ للعالم ولا يحمل همًا للاستيقاظ غفوت، غفوت دون خوف ألا أحصل على كفايتي من النوم وأستيقظ متأخرة فأتعرض للتكدير، غفوت دون الخوف من كوابيس أطارد فيها أحلامي القديمة التي تطاردني كلما فتحت عيني، غفوت بعيدا عن القاهرة المختنقة الضاغطة على أعصابي، بعيدا عن صراخ المرضى في الساعات الأولى من اليوم، غفوت دون تفكير كم أنا وحيدة!

أعرف أنه قد حدث لي شيء ما لكنى لا أعرف ماهيته، أو ربما تجاهلته، لقد فقدت جزءًا من عقلي تلك الليلة، في الحقيقة لم أكن متزنة

تماما قبلها، كنت بالكاد أتماسك، ظننت أني سأحافظ على بيت الزجاج داخلي لأطول فترة ممكنة، سأحافظ عليه حتى ينتهي كل شيء وتأتي أيام أفضل، لكنها لم تأت قط، ولم أحظ يوما بما أردته، لم أحظ بحبيب أثرثر معه حتى الصباح، يخبرني أنه برغم العطب الظاهر أملك جمالاً خفيًا، لم تكن لدي الصديقة التي تصطحبني في رحلة، وحين أخبرني أبي أنني مميزة ضحكت في سري لأني كنت أعي جيدا حجم هذه الكذبة، لم أكن ابنة أمي المفضلة، التي أظن أنها لا تحبني بقدر ما تؤدي واجبها ناحيتي، أمي التي لم تعد تتحمل صمتي أو صمت البيت بعد وفاة أبي فأبقت التلفاز يعمل طوال اليوم والليل، كأن صوته يتسلل لأحلامها فيبعث فيها الونس، ذلك الخوف من الصمت انتقل لي، حتى أدمنت أنا الأخرى الضوضاء، ربما يقضي الضجيج مِن حولي على كل تلك الهمسات في رأسي.

أُبقي على مسافة بيني وبين الآخرين، قد أقضي بعض الأيام أفكر ماذا أقول أوكيف أتصرف، ليس لأني لا أثق بالآخر بقدر ما لا أثق بنفسي، لأني أعرف كم أبدو قبيحة عن قرب!

لست ودودًا ولا مجامِلة ولا أراعي مشاعر الآخرين، غاضبة طوال الوقت كما لو أني على استعداد للدخول في عراك، أفتقد الجمال الداخلي كالخارجي، وأتخبط طيلة الوقت، إدراكي العالي بالفوضى بداخلي يجعلني على وشك البكاء دائما، لأني لا أعرف كيف أصلح كل تلك الأشياء، حقا كيف تصلح كل هذا العطب!

لست أول من تفقد والدًا ولا من يشوهها المرض، كما أني واحدة من الكثيرين ممن عجزوا عن خلق الحب في قلوب الآخرين، إذا لم تكن

هذه الأبواب مُشرعة على السواد، إذن فما مصدره؟ من أين دخل؟ لماذا يجلس بجواري دائما؟ لماذا يقول كل ما يؤلمني وأصدقه؟ولماذا في هذه اللحظة لا أملك الشجاعة وأُنهي كل شيء؟!

ربما في اللحظة التي لم أعد أرفع فيها نظري للسماء كلما أمطرت، أو ربما حين فقدَتْ قهوتي مرارتها التي أدمنتها، أو عندما تجاهلت الآيس كريم ساعة مروري به، ربما حين أصبحت أغنيتي المفضلة تزعجني، أو تشوهت سطور الكتاب الذي أقرؤه، وعلى الأرجح في اللحظة التي يئست فيها أن ينقذني شخص ما وعجزت عن إنقاذ نفسي.

كما تضع نقطة حبر في إناء به ماء، ويبدأ الحبر تدريجيا بالانتشار وبعد لحظات يتحول لون الماء، هكذا يحدث، أصغر الأشياء وأكثرها بساطة، أدق الإيماءات، أبرأ الكلمات، إحساس بالثِّقَل يبدأ من رُكبتيك، يصعد لصدرك فتشعر أن السماء بعيدة والعالم ضيق، لا تسمع صوتا غير ما يتردد في رأسك،لا يلفت انتباهك إلا الوقت، إما سريع يسرق من عمرك، وإما بطيء يذبحك بسكين بارد، يتحول النوم للمَهرب الوحيد، نوم طويل وشهية مفتوحة، تمزح كثيرا وتضحك، وعلى غير عادتك تبدو للمرة الأولى كأنك بخير، ربما لأنك تعرف أنه اقترب، تحاول مقاومته، تجاهله، ثم حين لا يغادرك تستسلم، يتقطع نومك وتتخلله الكوابيس، تفقد الشهية والقدرة على الكلام وتختبئ في عنق زجاجة أو في ذلك الركن البعيد من عقلك حيث خبأت وحوش القصص التي سمعتها حين كنت طفلاً، كما لو أنك تسير وحيدًا في شارع مُظلم تسمع صوت خطوات تقترب منك، تشعر بأنفاس دافئة على عنقك، فيسري هواء بارد في جسدك حتى يصل لأسفل ظهرك ثم يغطيك عرق بارد.

ليلة اليوم الأول

هواء المساء يأتي ثقيلاً، يَلوح الخريف من بعيد فيتغير الجو قليلاً ولكنه تَغير على استحياء، مازلتُ أشعر بالشمس فوق رأسي، أو بالأحرى عالقة في صدري، جرجرت قدميّ بوهن للمطبخ، أُشعل الضوء الأصفر فيسري في البيت المُظلم، أقف قليلاً أتطلع لكل ما حولي، عاجزة عن تَذكر سبب وجودي هنا، يدخل النسيم من الشباك حاملاً روائح بعض النباتات على السطح، أشعر بقلبي على وشك الانفجار، فكل الأشياء كما هي لكني لم أعد أنا، فبرغم الشمس العالقة في صدري تسري البرودة في جسدي، أَلَمٌ يزداد في ركبتي، وشيء مظلم يجذبني للأرض العارية، أُلقي بجسدي على البلاط، أسترق برودته وأدفعها نحو قلبي، أتكوم على جسدي ناظرة بطرف عيني للمصباح، للضوء الأصفر، تتكون بحيرة صغيرة من الدمع تحت وجنتي، أشهق ويغيب النفس ثم يعود، وكمن يهوي في حفرة عميقة أغط في النوم.

يُوقظني أذان الظهيرة من الجامع القريب، أفتح عيني، مُحاولةً تذكر السبب الذي أجرى دموعي، كأني لم أبكي قط، وكأن الوجع غاب عني، المكان كله غارق في الصمت، أبتلع ريقي فأجد حلقي جافًا يَشوبه المرار، دوار خفيف في رأسي، تمر الشمس بشعاع مرتجف لتسقط على الأرضية باهتة اللون، شيء في هذه الشمس الشتوية المُستسلمة يُشبهني، في يوم آخر كنت لأستسيغ القهوة، سأشربها بينما أستمتع بها تسري في حلقي وجسدي ثم تومض في رأسي، كنتُ لأمرر يدي في ذلك الشعاع فأشعر بالدفء، كنتُ لأعانق أمي وألقي برأسي تاركة نفسي للشعور بالأمان، وحين أقول يا رب لم أكن لأخجل كأني لا أستحق التلفظ بها.

أضع القهوة على الموقد وأستمر في تحريكها، أحاول تذكر مكان هاتفي، ذلك الشيء الذي بالكاد فارق يدي، راقبتُ العالم منه، حسدتُ الآخرين وتمنيت أن أحِل محلهم، انتظرت رسائل لم تأتي، وحين كنت بحاجة شديدة للتحدث لأحدهم يغرق هاتفي في الصمت، فيُذكّرني كم أنا وحيدة، حملت فنجالي وعدتُ لغرفة نومي القديمة، بحثت في الأشياء المتناثرة على الأرض، وجدت الهاتف صامتًا، فتحتُ الحقيبة الصغيرة ـ الشيء الوحيد الذي عدت به من ذلك اليوم ـ أخذت الشاحن وأوصلته بالجهاز، كنت أعرف بورود اتصالات كثيرة من العمل، قررت تجاهلها والتحدث مع أمي التي ما زالت تظن أني في المشفى، ثم تأملت الغرفة الممتلئة بلُعبي وصُوري، نظرت لصورة معلقة على الحائط كنت أبتسم فيها، ابتسامة ضاقت لها عيناي، ابتسامة تقول: أنا بخير وسأظل هكذا، كل ذلك الوقت مَر ولم يتحقق من أحلامي إلا

القليل، وهذا القليل تحول لكوابيس تخنقني، فتحتُ الدولاب ولم أجد أي ملابس فلم آتِ هنا منذ سنوات، الدولاب وكل ما حولي مُغطى بالتراب، لكن زيارات أمي المتقطعة أبقت على الغاز والكهرباء، حتى لمسات يدها محاولة إزاحة التراب المتراكم ما زالت هنا، اتجهت لغرفة أبي مُتجاهلة غُصة، فتحت دولابه وأخذت بعض من ملابسه، عدت بها لغرفتي وألقيتها في الدولاب، وهكذا أصبح لديّ ما أرتديه، بعد أن أهاتف أمي سأجلس إلى قهوتي ثم أدع نفسي تسقط، لأنه لا طاقة لدي ولا سبب يدفعني للمقاومة.

ليلة اليوم الثاني

وقفت في الشرفة أراقب العالم، أريح رأسي على السور الحديدي، تشتد آلام معدتي بعد هذا العدد الكبير من فناجين القهوة، تسير بعض الفتيات على الرصيف المقابل، يأتي صوت ضحكاتهن إليّ، فأرغب أن أصبح مثلهن، يبدو العالم مُزدحمًا وغارقًا في حاله كأنه يسير بمُحرك في مكان ما، مُحرك يتغذى علينا نحن البشر، يحتاجنا فقط ليعمل، ثم مع الوقت بعد أن نُستنزف نفقد أهميتنا، لماذا يبدو العالم مُزدحمًا هكذا كلما شعرت بالوحدة؟

يومض ضوء في عيني، أجفل ثم أرفع رأسي باحثة عن مصدره فلا أرى شيئًا، أظن أني بدأت أتوهم، أسمع صوت صرصور الليل يأتي من مكان ما، يُذكرني بالأيام القديمة، يبدأ إحساس بالأمان الانتشار في داخلي، حين أحاول تَحسُّسه يختفي، يحل محله الوحش الذي أعرفه

جيدا، يُخبرني أني لست جيدة كفاية لأنتمي لهذا العالم المُزدحم، لا أحد هناك يُحبني، لا أحد ينتظرني، وأني مَنسية.

صباح اليوم الثالث

رائحة أنفاسي كريهة، أشم رائحة شعري الزيّتي، بينما تنبض بثرة في جبيني، جسدي ثقيل، وكل عظامي تؤلمني، أخاف أن أتحرك فأكسرها، كما أني لا أثق أن قدميّ قادرتان على حملي، يبدو كل شيء باهتًا ومشوشًا وبعيدًا، كأني لو مددت يدي لألمس أي شيء سيختفي، أو كأني أطلّ على العالم من خلف جدار، لا أفكار في رأسي الآن، ربما لأني مُتعبة للدرجة التي تجعل رأسي لا يقوى على حملها، مازلتُ أحدق في سقف الغرفة، تصل بعض الأصوات من الشارع فأسمع طنينًا في أذني، أتكور وأحدق في الدولاب، ثم الحيطان، فبين تلك الحيطان أحلام كثيرة وتوقعات، أردت أن أكون كل شيء أو شيئًا مهم لشخص ما، أردت أن أستيقظ لعملي دون أن أدفع جسدي من على السرير، وألا تمر الأيام في انتظار الإجازة، أردت ممارسة هوايتي التي توقفت عنها، ألا تأتيني وقت العمل رغبة في الهروب أو الذهاب لأقرب مرحاض والبكاء حتى يسيل الكحل ويزداد السواد أسفل عيني، تمنيتُ لو أثق بنفسي أو أن أتوقف عن جَلدها لأنها تخذلني، لأنها ليست جميلة كفاية أو ذكية كفاية أو حتى قوية، أردت ألا أكبر وأن أبقى حتى النهاية أستند على أبي، أردت كل تلك الأشياء وانتهيتُ عالقة هنا، غير قادرة على السير في طريق بدأته، عاجزة عن التقاط أنفاسي، أخاف أن أنهض من السرير، تُصيبني نوبة فزع، فأجلس وأمد رأسي بحثًا عن الهواء، أدفع الهواء

داخل صدري بكل عنف، كأني أحشره في رئتيّ وأمعائي، أشهق أكثر فيحتقن وجهي، أنظر لكل ما حولي كأنها آخر مرة، أتأمل اللُعب الساكنة في ركن الغرفة، أنظر لألوانها الباهتة، تمتص اختناقي، بعد قليل يعود تنفسي هادئًا بطيئًا، فأتمدد على السرير ثانية بحثًا عن النوم.

قرابة العصاري، كان صوت العصافير في المسقط قويًا، وجدتني أتسمعه في الحلم، وأستيقظ لأجده حقيقيًا، أخرجتُ قدمي من تحت الأغطية وضعتهما على الأرض الباردة وقفت عليها مستندة إلى السرير، ثم بعد قليل تحركت، غسلت وجهي ودون النظر في المرآة رفعت شعري لأعلى، أعرف أنني أبدو قبيحة، فمن دون الكحل سيزداد صغر عيني المتورمتين من كثرة البكاء، وأن شعري قد غابت عنه الصبغة فظهر لونه الفضي، خمنتُ كم أبدو مخيفة بشعري الأبيض هذا، ارتديت معطف أبي البني الكبير، وخبأت يدي في أكمامه، أغلقت سحابه وأخفيت جزءًا من ذقني خلف ياقته، فتحت الباب وصعدت السلم درجة درجة للسطح.

مع كل درجة يومض الضوء في عيني فأغلقهما، وحين وصلتُ كنت منهكة، لا أعرف هل لأني صعدت دورًا واحدًا؟ غادرت السرير؟ لأني أحمل رأسي الثقيل؟ أم لأني ببساطة أتنفس.

في الجزء الخلفي من السطح وضعت أمي أريكة وبضعة كراسي، والكثير من أواني الزرع، تعلو الأريكة حتى باب السطح تكعيبة عنب، قد جفت الآن، الشمس بلونها القرمزي تختفي تدريجيًا خلف السور، النبات الميت، وأواني الزرع الباهتة ويوم آخر ينتهي دون أن يقودني لمكان، أصابني بالفزع، شعرت بدوار وركضت في اتجاه الأريكة، رقدت عليها مخبئة جسدي في معطف أبي مغلقة عيني، متمنية أن يختفي هذا

العالم كما أعرفه، وكما أنا به متشرّبة الوحدة حتى عظامي.

كانت بداية البهاق ببقعة بيضاء توسطت عنقي، كنتُ أتفقد وجهي في المرآة، ورأيتها تستقر أسفل الرقبة، حينها لم أفهم طبيعتها، ناديت على أمي وأبي اللذين وقفا حائرين يتطلعان إليها دون تقديم تفسير واحد، أدركت في داخلي أن شيئًا ما تغير، تغييرًا سألمسه كلما أطال غريب التّطلع إلى يدي، أو بعض البقع التي تناثرت في وجهي، ببساطة لم أعد أنا، أصبحت أتحسس نقصي كلما مرت أمامي فتاة جميلة، كلما أُعجب رجل بامرأة ونسي أني بجواره، النقص يزداد، ومع الانتظار الطويل، يشوبه المرار، مرار يُسبغ داخلي، ولا أستطيع الخلاص منه.

ساعات طويلة قضيتها في حجرات انتظار الأطباء، لا جديد، الطريق طويل والتحسن بطيء، حاولت اعتياده، لكن كلما مر الوقت فهمت أني لست سوى فتاة بلونين، تُخفي يدها بقفاز لتتحاشى فضول الغرباء، كما أتلقى جلسات ضوئية مرتين في الأسبوع، أخلع ملابسي وأقف أمام جهاز تتراص فيه اللمبات، لتزداد الأماكن الداكنة اسمرارًا، بينما تحتفظ البقع البيضاء بلونها الباهت.

لم أنم، بل عيناي المفتوحتان تشاهدان العالم بصمت، وأذناي تستمعان لكل تلك الأصوات الخافتة، وأنا متكورة أحاول البحث عن ذاتي وملامستها، ذاتي المُرة الحانقة والهشة في آنٍ، تلك التي كلما خطوت في اتجاهها تبدلت ملامحها حتى تُهت عنها، وكلما لمستها تناثر الغبار المتراكم عليها في الجو، كأنها ظلت منسية لوقت طويل، نسمات باردة تُحرك أوراق العنب الصفراء فيصدر عنها صوت، صوت تسمعه بعد طول غياب، في يوم آخر، أنا أخرى، كنت لألامس كل شيء وأحتفظ به داخلي، لكن اليوم تبدو تلك الأشياء كآخر ذكرى من حلم راودك قبل الاستيقاظ.

غفوت قليلاً لتوقظني رائحة قهوة قوية، يقف أمامي رجل حاملاً القهوة، يطالعني بصمتٍ كمن يراقب مشهدًا دون التدخل فيه، شعره وحاجباه كثيفان بذقن خفيفة يَحُكّها بينما يتطلع ناحيتي، يلتف حول عنقه شريط أسود ينتهي بكاميرا، يتناقض سماره مع قميصه الأبيض المتعرج، الذي يدفعني بياضه لإغماض عيني، ما زال يراقبني دون حديث، ولا أعرف ما الذي أثارته هيئتي في نفسه، أعتقد أنه شعر بالخوف أو الارتباك لرؤية فتاة في مثل عمري شعرها أبيض، أو ربما قبح منظري أثار التقزز في نفسه، أردته أن يختفي، أن يغادر وألا يسأل أسئلة

سخيفة أو يحدق لبقع البهاق في جسدي أو شعري الأبيض، لكنه دون كلمة واحدة اتجه للسور بجوار الأريكة، وضع القهوة عليه، وأستند إليه يراقب الأفق في تلك اللحظات الأخيرة من النهار.

كيف تتحدث عن كل شيء دون كلمة واحدة؟! كيف تُعانق شخصًا دون لمسه؟! كيف تُربّت على كتفه بينما تقف ممسكًا بالقهوة مُرتشفًا منها على مهل؟! ظِل ذلك الرجل الغريب على الأرض كان أقرب لي من كُثر عرفتهم في حياتي أو مروا بي وتركوني مُتعطشة للمزيد.

ما زال واقفًا هناك غارقًا بالصمت، تعرفت على وجوده من ضوء سيجارته ورائحة قهوته، انتهزت فرصة حلول الظلام ونهضت لأغادر، لم أرد أن يرى ملابسي الرثة أو مظهري السيئ، وحين اقتربت من باب السطح استدرتُ لألقي نظرة عليه، أناروجهه ضوء سيارة مارقة في الشارع، فبدا لي مألوفًا أعتقد أني التقيته من قبل، ربما هو جاري الذي لم ألتفت له يوما، لثانية تسمرت أمام إدراكي أن شعوري به أقدم من شعوري بجار، بل هو أقرب لما تحسّه ناحية صديق الطفولة، الذي تتعرف إليه في عامك الأول ويرافقك طوال سنوات الدراسة.

أثارني الفضول لمعرفة ذلك الرجل، كنت أعرف أني أستغله لأشغل نفسي عن التفكير في ذاتي، ولذلك لم أقاوم التفكير فيه، بل جعلته ينساب لعقلي، تذكرتُ بعض الأشياء عنه، وتذكرتُ أني كثيرًا ما اصطدمت به على السلم، في أيام الشتاء التي قضيتها هنا، كان يركض على السلم هبوطًا وصعودًا فلم أنتبه لملامحه جيدا، لا أستطيع تحديد انطباعي عن سلوكه بالأمس، هل كان فظًا لأنه لم يحاورني وتجنبني؟ أم كريمًا عندما وجد حالتي رثة لا تسمح بذلك؟ الشعور الوحيد المؤكد هو رغبتي

في التعرف إليه أكثر، في فهم عالمه والتقرب منه، رغم صوت في داخلي أعرفه جيدًا حذرني من هذا وطلب مني الابتعاد عنه، وكالعادة تجاهلتُ هذا الصوت، ربما رغبة مني في إلهاء نفسي، أو لأنه لم يكن لدي ما أخسره، أو لأن هذا الغريب كان لديه شيء ما أحتاجه بشدة لأنجو، شيء خفي لا أعرف كُنهه، لكني أريده.

في ذات الموعد تقدمت من باب السطح، وقفت في مواجهة الأريكة، كان جالسًا أمامي، يضع الكاميرا على الطاولة بجوار موقد صغير يعد عليه القهوة، التي وصلت إليّ رائحتها، ارتبكت وتجمدت مكاني، فبرغم صعودي بحثًا عنه، لم أتوقع رؤيته جالسًا بكل هذه الثقة، كأنه ينتمي لهذا المكان أكثر مني، بل كأنه جزء منه، تمامًا كأواني الزرع، بل إن شعوري بالألفة تجاهه تماما كشعوري بالألفة تجاه المكان.

ابتسم ابتسامة جانبية، مستمرًا في تحريك القهوة، قال دون رفع نظره: اقتربي، أعد القهوة لكلينا.

تحركت بآلية مدفوعة من شيء ما عاجزة عن فهمه، جلست على الكرسي بجوار الأريكة مُعلقة نظري بالقهوة التي تغلي، ارتعد جسدي حين تذكرت سطح كوب القهوة ذلك اليوم واجتاحتني رغبة في الهرب، أتى صوته الأجش آخذا إياي بعيدًا عن أفكاري: القهوة تحب الانتظار، أن تدعي الوقت يفعل كل شيء، هكذا تُعد القهوة التركي، سأعرّفك على أنواع كثيرة في الأيام المقبلة.

ناولني فنجان القهوة وصبّ لنفسه واحدًا آخر، أخذ يشربه مُريحًا ظَهره على الأريكة، لم يتحدث بعدها، بل يرتشف القهوة فقط، حين

أظلمت الدنيا، سحبت نَفسي وغادرت، كانت القهوة أكثر من جيدة، أردت أن أحتفظ بمذاقها في فمي، فلم أتناول شيئًا بعدها، لم يقل الكثير، لم يعرّفني بنفسه أو يحاول التعرف إليّ، فوجدتني أرغب في العودة، في شرب القهوة والتحدث إليه، قضيت الليل أفكر في الأشياءالصغيرة التي تبقت من ذلك اللقاء الخاطف، أفكر في الضوء الخافت الذي يسبق العتمة، في رائحة قهوته الممتزجة بعطر الياسمين الشامي الذابل، في لمعان معدن الكاميرا الخاصة به، ثنية قميصه المُتعرج، لون عينيه حين تختفي الشمس، دفء الشعلة الصغيرة على الطاولة الخشبية، كل ذلك جعلني أشعر أن هذا الرجل لن يؤذيني أبدا، فكأن صدري اتسع ليشمل العالم، أو أن السماء ارتفعت قليلاً عن رأسي، فدخلت أنفاسي حرة محملة بهواء جديد، كنتُ كطفل كوّن صداقات في المدرسة، جعلته يرغب في الذهاب إليها كل يوم. ولماذا كان لديه فنجانان من القهوة إن لم يكن يتوقع رِفقتي؟!

هل ولدتُ حزينة؟ أم أنه شعور مسبّق داخلي أني لن أكون بخير؟

لا أعرف إن كان خوفي الشديد من الوحدة هو الذي دفعني إليها، أم لأنها قدري سرتُ ناحيتها ببساطة؟ وجدت أن أفضل ما أفعله هو تجنب هذا النوع من الأسئلة، أو أن أطفئ الضوء في عقلي قليلاً وأذهب للنوم.

ذلك النوم حين تتأخر العائلة في السهر وتنام على الأريكة بينما يستمرون في التحدث، أردت أن يذهب عقلي للنوم مستمعًا للحديث، لأي ثرثرة، ثرثرة من شخص أعرف أنه قريب مني، شخص أثق به حين يجدني غفوت، يحملني ويضعني في السرير وحين أستيقظ من الغفوة سأجدني بخير، اعتاد أبي فعل ذلك، وبعد موته كنت أبحث عن أي شخص، أصابني فقده بحالة هلع مستمرة، ففي داخلي كنت أرتعد، لأن أي غريب قد يؤذيني، أي طريق قد أتوه به، وأي قرار هو خاطئ، كنت أتخبط، ولأني أعرف أن الميت لايعود أبدًا أردت استبداله بشخص آخر، كنت على استعداد للوقوع في حب من يعاملني بلُطف أو أحيانًا بقسوة لأنها ستذكرني بقسوة أبي، كنت أميل للآخر بمجرد ابتسامة واحدة، فتأذيتُ كثيرا وفقدت الثقة بنفسي، خفت لو اقتربت من شخص مجددًا أن أحبه لأني بحاجة لأي شخص، والواقع أني كنت

بحاجة لنفسي، لكني أطلت الاستناد على ظهري، حتى شرختُ عظامي وخفت على ذلك الظهر الذي ساندني طويلاً أن ينحني، أنا مشوشة وأعي هذا، وأخاف أن يستغل غريب كل هذا الضعف.

كنت كمن يستمع للحن حزين عبر المذياع، فيتذكر كل الأشياء السيئة التي مر بها ويغلبه شعور عميق بالحزن، وفي حالتي لم يكن اللحن ليصمت أبدا، بل يستمر في حلقات لن تنتهي إلا بموتي.

لعدة أيام استيقظت برأس خاو، لا أتحدث إلا مع أمي على الهاتف لأطمئنها ومع «آدم»، وحتى الآن لم أكن أغادر البيت إلا للذهاب للسطح، لعدة ساعات كل يوم وحتى تغيب الشمس كنت أجلس قبالته، شعري الفضي مرفوع لأعلى، أخبئ بقع يدي البيضاء بكمي، وأشاهده يعد القهوة أمامي، لا نتحدث عن شيء غير القهوة، حتى هذه الأيام كنت أتناول أي قهوة، كل أنواعها حتى الرديء منها، أقتات فقط على الكافيين، لم أعرف أي شيء عن صناعتها أو أنواعها أو حتى طرق إعدادها المختلفة، حين يُحادثني «آدم» عنها تلمع عيناه ومع ذلك لم يعاملني بتعالٍ، بل نتحدث فقط عن القهوة، لم يكن في داخلي ما أتحدث عنه، فلم أعرف كيف أعبر عن كل تلك الأصوات الصارخة، كيف أصوّر الظلام والأشباح والوحدة، لن أعرف تبرير تَركي لعملي أو سبب حزني الدائم ونوبات اكتئابي، الشيء الوحيد الذي أثق به أني خائفة ولا أعرف لماذا.

كان كل ما في «آدم» ناضج، ابتداءً من عظمتي وجنتيه حتى شعر رأسه المختلط بالأبيض، ما عدا ضحكته، لضحكته صوت طفولي يثير في داخلك الضحك، كان كثير الابتسام، يعود ذلك للطفه المبالغ

به، لكنه مع ذلك لم يضحك إلا قليلا، أشياء قليلة فقط تضحكه، لذا للمرة الأولى منذ التقيته أرى حزنًا نائمًا في عينيه، حُزن قاتم ومخيف، عطب روح.

بينما أجلس لآدم يحادثني، يجلس الاكتئاب بيننا، يستمع إليه ويشاهده بوَله كطفل صغير، يبدو أن اكتئابي مثلي وحيد، بحاجة لمن يربت عليه، لمن يوجه إليه الحديث دون أن يتجاهله أو يلعنه، لكن متى أصبح اكتئابي يثير تعاطفي؟ متى تصالحت معه؟ وكيف؟!

سألت «آدم» إن كانت المكتبة على ناصية الشارع ما زالت تزاول نشاطها، كنت أقف بجانبه مُستندة على السور بينما يدخن سيجارته على مهل، ابتسم كعادته دون أن يلتفت، وقال: لطالما رأيتك مُحمّلة بالكتب، تريدين العودة للقراءة مجددًا؟

قلت:هناك أشياء لا تُنتزع منك كأن روحك تلتف حولها

ـ عليك الحذر من هذه الأشياء لأنها تتملكك في النهاية

ـ وتنقذك أيضا، كالتصوير والقهوة بالنسبة لك، أليس كذلك؟

ـ ليس لديكِ أدنى فكرة!

قال الجملة الأخيرة بشيء من الحزن، ولكنه بعدها استدار ليغادر، قائلاً: التقي بي صباحا في السادسة على الشاطئ.

وابتعد صوت خطواته حتى اختفى.

حين انطلق المنبه في الخامسة، لم أكن نمت، أعرف أنه ليس موعدا حقيقيا، ولأني لم أحظ بموعد في حياتي من قبل فلم أكترث للفارق، كنت قلقة بشكل أساسي لأنه بعد أسبوعين من عُزلتي سأخرج لمواجهة العالم، سيسهّل وجود «آدم»هذه المواجهة، ولكن ألا يعني هذا أني أصبحت أثق به كثيرا؟

أعرف أني أبدو كمن يجلس ليزن ويوثق مشاعره تجاه الآخرين في كل لحظة، هذا يبدو مملاً جدًا، وأعرف أن ما أفعله لن يحميني من الأذى المُقدّر لي، وَقفتُ أمام المرآة أمرر أصابعي على البقع البيضاء، بضع بقع مُتناثرة حول فمي، وواحدة صغيرة أسفل عيني تبدو كدمعة لا تُمحى أبدا.

ليس أمامي خيارات كثيرة في الملابس، ارتديت جينز مُهترئًا يعود لأبي وتيشرت قديمًا، وكالعادة رفعت شعري بفوضوية ووضعت على جسدي معطف أبي، لم أخرج يومًا في حياتي متخيلة أني قد ألتقي الحب على عتبة الباب، أوعند المنعطف القادم، أوهمت نفسي بالحب كثيرًا لكن عرفت دوما أني لا أليق به، فمقارنة بالفتيات كنت لا أحد، فبينما تشتكي فتاة من بثرة ولا تستطيع النوم بسببها، كان عليّ التعامل مع تغير لون جلدي والتهديد المستمر بهذا، فتحت الباب ووقفت أمامه خائفة أن

أُري العالم وجهي، فمن سيحميني من نظراتهم، ومن سيشعرني ولو كذبًا أني جميلة؟

هبطت السلم ممسكة بالسور، يتملكني دوار خفيف، أخاف أن أستند على قدمي تخونني، أشعر كأن جسدي كله خالٍ من العظام، أهبط درجة درجة كمن يتعلم الخطو من جديد، وكلما اقتربت من ضوء النهار في الخارج، أو ترامت لي جلبة الشارع، أردت أن أركض عائدةً لأعلى، أن أختبئ في الغرفة وألا أغادرها أبدا، لكني كنت واثقة أن العالم بطريقة أو بأخرى سيعثر على ويؤذيني، لمست باب العمارة الخشبي الكبير، حاولت امتصاص البرودة منه، مر صبي يركب دراجة مسرعًا، تأملت سلتها الأمامية وجرسها، وتذكرت حلمي القديم بامتلاك واحدة، منحني هذا الحلم الثقة لأتقدم قليلا، حينها توقف أمامي رجل يحمل مرآة كبيرة، رأيت وجهي وانعكاسي، كم بدوت عجوزا باهتة ووحيدة! وكأن قدمي مُنحتا قوة خارقة، فركضت على السلم لأعلى، أمسكت بي يد وجذبتني للخلف وحين التفت رأيته هو، يحدق بي، يتسلل داخلي، ويكسّر المرآة التي رأيت فيها كم أنا قبيحة!

تلعثمت، لم أعرف كيف أعتذر إليه، لكنه بدا كمن يتفهم كل شيء، نكست رأسي هربا من عينيه، لكنه قال معتذرا: طرأ شيء ما، ما رأيك لو نذهب غدا؟

أومأت برأسي موافقة، محاولة الاحتفاظ لأطول فترة ممكنة بهدوئي وتصنعي.

مع دقة الساعة السادسة كنت أجلس في الشرفة، أراقب البحر، لم أنم جيدًا، شعرت بالحرج من نفسي، بضعفي أمام الاكتئاب، وأشفقت على ذاتي، ففي كل يوم أجرجر جسدًا ميتًا تفوح رائحته التي لا يشمها أحد غيري، أردت أن أبقى جالسة هكذا للأبد، فقدت الرغبة في أن أحتك بالعالم، أن أرى أحدًا أو أتحدث إليه، لم أُرد العودة لعملي وممارسة الطب، لا أريد أن أستيقظ كل صباح متمنية أن ينتهي اليوم، أو يدفعني الضغط لأقسو على الآخرين أو أسيء إليهم، أخاف أيضا ألا أحاول التعلم لأن روحي ثقيلة ومتعبة، في هذه اللحظة التي يبدأ فيها يوم جديد، بدا العالم غُولاً عملاقًا، وكنت أتضاءل أمامه لكني لم أختفِ بعد.

مضيت ناحية الباب حين سمعت طرقاته، ظننته البواب يريد أن يزعجني باستفسارات غبية، أردت أن أحذره من طرق الباب، وأني سأرسل في طلبه حين أحتاجه، فتحت الباب تاركة شعري الأبيض على طبيعته، مرتدية تي شيرت أبي المهترئة ياقته، مميلة رأسي المثقل على ناحية، جاء صوت يكتم ضحكة خفيفة، نبهتني لأفتح عيني لأجد آدم واقفا أمامي:

ـ انتظرتك ولم تأتي، خمنت أنك نسيتِ الموعد.

ـ لكن الموعد كان بالأمس وليس اليوم.

ـ حين تتخلين عن الموعد يتأجل تلقائيا للغد.

ـ من قال هذا؟

ـ أنا.

ـ ثم؟

ـ سأنتظرك على الشاطئ، سأشتري لكِ القهوة.

وقفت أنظر لباب الشرفة المفتوح، شعرت أني أتخلى عنها، أخونها لو وافقت على دعوته، رددت قاعدتي ألا أتمسك بالآخرين، ألا أسمح لهم باقتحامي، لأنهم يجعلونك تعتادهم ثم يرحلون، أعرف البدايات حين تمر أمامي، وهذه بداية صداقة، سآخذ منها وأعطي فيها، وأنا ليس لدي ما أعطيه لأحد، وأخاف أن آخذ من أي شخص فأستنزفه، كمصاص دماء متعطش للحياة والحب وكل الأشياء التي حدثوه عنها ولم يرها من قبل.

ولكني أريد أن أكون بخير، أن أتحدث لرجل وأنظر في عينيه، لا أريد أن يمنعني مرضيّ من الحياة، تعبت من حمل الاكتئاب في عقلي، أنهكتني كل تلك الأفكار في رأسي، أريد العودة للبيت وأن أشعر بداخله بالأمان، لا أن أبقى أبحث عنه حتى وأنا بين جدرانه، لم يكن ذلك البيت في القاهرة أو الإسكندرية، لم يكن في المشفى، أو بين كتبي، البيت الذي أتحرق للعودة إليه جاثم في صدري، أشعر به وأعرف كيف ستبدو العودة إليه، ولكني أدرك جيدا أني لا أعرف طريق العودة، وأعرف أيضا أن

كل أبوابه موصدة، وأضواءه مطفأة، وأني هنا وحدي أتجمد بردًا، أريد الوقوع في الحب دون حسابات مطولة عن الربح والخسارة، أن أنظر للبقع البيضاء في وجهي دون أن أخجل من نفسي، أريد التنفس...

كل ما فعلته هو أن استبدلت بالتي شيرت واحدًا آخر حالته لا تختلف قليلا، ما تبقى من شعار كان عليه يوما ما، هو بعض الحروف المتناثرة والباهتة، لا يمكنك أن تكوّن منها كلمة، لملمت شعري وعقدته في الخلف، ثم ارتديت جاكت أبي، كانت حالتي رثة، لم تكن تليق بأن أخطو حتى للخارج، ما بالك بتمشية مع رجل وسيم على البحر!

البيت قريب من البحر، فقط أعبر الشارع ثم أكون هناك، الجو بارد والغيوم تملأ السماء، يمكنك أن تشم رائحة المطر حتى قبل هطوله، حين اقتربت من الشاطئ رأيت «آدم» يلعب مع كلبه، مُرتديا بنطاله القصير، لا أعرف أنواع الكلاب جيدا، فأنا لم أمتلك واحدًا من قبل، إلا أن الكلب كان يملك عينين رماديتين ضيقتين، شعرت أنه مميز نوعا ما، عندما رآني «آدم» ابتسم بدفء واقترب مني يلحق به كلبه، أخذ يدي ومررها على زغب الكلب، شعرت بقشعريرة وتراجعت قليلا، أخذ يدي ثانية قائلا: يجب أن تصيرا صديقين، فقد أتركه في رعايتك حين أسافر.

ـ هل تسافر كثيرا؟

ـ لا أسئلة عزيزتي، بل قهوة.

حينها ترك طوق الكلب في يدي وركض في اتجاه الشارع، حاول

الكلب أن يلحق به فمنعته، ووقفت أحدق في الطريق كالبلهاء، شاعرة بالخوف والغربة برغم أنه بإمكاني رؤية نافذة بيتي من هنا، أخذت الدموع تبلل وجنتي دون أن أفهم السبب، فأنا منذ صغري لا أحب أن يرحل شخص ما أمامي، لذا حين أكون مع أصدقائي أتعمد الرحيل مبكرة، لو رحل شخص ما وتركني خلفه أشعر بالحزن.

حين عاد بعد قليل أخبرته أن شيئا ما علق بعيني، ناولني القهوة، وسار بجانبي هو والكلب دون أن يقول شيئًا، من وقت لآخر كانت أيدينا تتلامس، لم يكن يسحبها بعنف أو ينتفض، بل يجعلها تبتعدان تدريجيا، مع كل لحظة كان البرد في عظامي يزداد، بالتزامن مع رغبتي في العودة لغرفتي والاختباء، بينما هو يسير بجواري ببنطاله القصير دون أن يشعر بالبرد، أنقل طرف نظري إليه أحيانا، أتأكد أنه هنا، ولا أفهم كيف ينتقل من ثرثرة متواصلة واقتحام لحياتي، لهدوء وصمت لا أشعر معهما بالوحدة، لم تعد جيوب الجاكت كافية لتدفئ يدي وبالرغم من رغبتي في البقاء، استأذنت منه في العودة، وقف في مواجهتي وقال: سأنتظرك غدا هنا في السادسة.

ـ لكن لماذا؟

ـ لأننا أصدقاء، ولأني أحب التمشية معك والحديث.

ـ لكنك لا تقول شيئا.

ـ سأنتظرك غدا لأستمع إليكِ.

ثم عاد يتمشى أمامي بصحبة الكلب موجها ظهره لي، شعرت بالضيق ثانية ورحلت عائدة للبيت.

شيئا فشيئًا أخذت أعتاد ذلك الروتين الصباحي، الهواء البارد على الشاطئ محملا برائحة البحر، اللعب مع «أسود» كلب «آدم»، الثرثرة مع آدم الذي قد يكتفي بإيماءة أو ابتسامة أو بثرثرة تُشعرني أن الطريق بيننا طويل وأن ما أراه منه مجرد بوابة حديدية تقع في بدايته، أضف إلى ذلك طعم القهوة الذي يتغير نوعها كل صباح والذي يبقى في فمي طيلة اليوم.

بطريقة ما تمكنت من إبعاد الأسئلة والأفكار السيئة عن رأسي، كأني اكتشفت المكان السحري حيث يختبئ زر عقلي، مددت إليه يدي، أدرته فانطفأت الأضواء أو هكذا ظننت.

كالكثيرين في هذا العالم تُخيفني أوقات بعد منتصف الليل، العالم هادئ، لا أصوات تأتي من بعيد تتكلف بتشتيتك، لا اتصالات مزعجة، حتى أصوات السيارات على الطريق تكاد تنعدم، ببساطة الصوت الوحيد الذي تسمعه هو الصوت في رأسك، لذا خفت الأيام التي اضطررت فيها لمشاهدة تلك الأوقات لا تمر، حين كنت أعمل، تمكن العمل من إلهائي عنها، ثم يخضع عقلي لرغبة جسدي المُنهك في النوم وينتهي الأمر.

أما الآن، فأجدني في مواجهة رأسي المضطرب، يخبرني بكل الأشياء السيئة التي حدثت معي، يعيدها حَدثًا حدَثًا، كل من تجاهلني أو آذاني أو رفضني، حتى الأشياء الصغيرة التي تُودعها طفولة بعيدة تظن أنها لن تعود منها، تجدها قطعت كل تلك المسافة لتواجهك من جديد، ثم بلا رحمة يطلب مني عقلي التطلع في المرآة، وتقرير إن كانت فتاة بقبحي أو بالتشوه الذي أعاني منه تستحق الحياة!

في تلك الليلة كنت برفقة «آدم» على السطح، أراد أن يجرب نوعا جديدا من القهوة، وأن أشاركه الرأي، ظننته يمزح، لأني حديثة العهد بأنواع القهوة، فلأعوام طويلة اعتدت شرب ما يقدم لي منها، ما يكفي لإبقائي مُستيقظة دون السؤال عن مصدرها، حين صعدت على السلم، وجدته ما زال رطبًا من تلك الأمطار التي استمرت منذ الظهيرة، تاركة الهواء معبقًا بها، أخذ قلبي يخفق بقوة لم أعتدها من قبل، كأنه ينوي الفرار من صدري، وجدت «آدم»قبالة الباب، جالسا يعد القهوة، ويحركها على مهل، كل شيء في تلك الأمسية كان رائعًا، ومع ذلك كلما حاولت لمس شيء أو الإمساك به اكتشفت أنه لا يخصني، فالرجل الجالس أمامي قد ينظر لفتاة مثلي بعين العطف أو الشفقة أو ربما الصداقة، لكنه لن يحب فتاة تبدو هكذا، والقهوة التي يعدها من أجلى الآن سيُعدها من أجل امرأة أخرى، وربما يفعل ذلك بشغف أكبر، حتى الإسكندرية، ذاك البحر المترامي في الأفق لن أبقى أتطلع إليه لوقت طويل، بدأ لون وطعم كل شيء يتغير من حولي، فكرة تسربت من باب موارب في عقلي وجرجرت خلفها كل الأفكار السيئة، جلست كعادتي على الكرسي بجوار الكنبة، أتدفأ في معطفي، لمحني بطرف عينه، وكأنه قرأ ما يعتمل ما بداخلي.

ـ لا تبدين على عادتك الليلة.

ـ كأني سأصاب بالبرد.

ورفعت يدي لأنفي أضغط عليها، لأوهمه بصحة كلامي، صَبّ القهوة لي وقال بنبرة جعلتني أدرك فشل كذبتي:

ـ ستدفئك القهوة قليلا.

وجدتها مناسبة لأغير الموضوع، فسألته عن ارتدائه الدائم للملابس الخفيفة

ـ تعرفين أني كثير السفر، قد أختبر أكثر من طقس في أسبوع واحد، في البداية تنقلت من ارتداء المعاطف للملابس الثقيلة، حتى تكيف جسدي دون أن أدري، أعتقد أن لدينا القدرة جميعا على التكيف، حتى مع أكثر الأشياء سوءا.

ـ حينها سنعتاد الأشياء السيئة، وقد نفقد القدرة على تغييرها

ـ مؤقتا، حتى تتولد في داخلنا القدرة على التغيير، حتى يصبح كل شيء بخير.

رددت بحدة: لن يكون أي شيء بخير، في الحقيقة لن يتغير شيء، ستبقى حياتي المزرية تنقلني من يوم لآخر، سأعاود العمل في المشفى لأيام طويلة، سأكون سيئة المزاج، وأفقد أعصابي سريعًا، أفتقد أبي، وأتجنب النظر في المرآة، وسأستيقظ كل يوم خائفة من انتشار البهاق في وجهي...

وبعد أن انتبهت لارتفاع صوتي قلت: آسفة، لا أعرف ماذا أصابني اليوم.

ـ تطفو الأشياء على السطح لأنها تود الخروج.

لم أرد أن أسمع شيئا، شعرت أن حديثه مُنمق، لن يحل شيئا، ولا أعرف إن كنت حقا آمل حلاً، أردت فقط أن يتوقف، فتناولت القهوة صامتة، غير راغبة في الحديث، خائفة من ليلة ثقيلة وطويلة تمتد أمامي، وقد لا تنتهي.

فتحت خزانة الأدوية، تحتفظ أمي ببعض الأدوية المنومة، فتحت علبتها، لم يكن هناك الكثير، شعرت بخيبة أمل، فربما لو كانت حتى نصف ممتلئة لتناولتها وانتهى كل شيء، اكتفيت بقرصين، ووضعت نفسي في السرير، تاركة هواء البحر يدخل من الشباك،لا أعرف كم كانت الساعة حين فتحت عيني ثانية، لكن الخارج ما زال يغط في الظلام، لم أستطع إلا تحريك عيني، كأني فقدت السيطرة على جسدي، رأيت عند مؤخرة السرير امرأة ترتدي الأسود، لم أستطع إلا تبين عينيها المحدقتين بي، تتنفس ببطء، رائحة أنفاسها كريهة ومع كل نفس كان صدرها يأز، حاولت تحريك جسدي، فوجدتني عاجزة عن ذلك، حتى صوتي انحشر في حلقي ولم يخرج، تراكمت الدموع أسفل رأسي على الوسادة، وتسارعت أنفاسي، بعد قليل بدأت أتمكن من تحريك جسدي، وحين رفعت رأسي لم أجدها، لم يبق منها إلا رائحتها التي خلفتها في المكان، أخذت أحاول التقاط أنفاسي بينما أبكي في الوقت ذاته، قدماي ترتعدان

وحين لمستا الأرض سرى البرد أسفل ظهري، وقفت في الشرفة محاولة التنفس وفتح فمي، كان الهواء قويا فأخذت أرتجف، وأخذ شعري يتطاير، شعرت بالغضب منه ومن ذاتي، فجذبت بعضا منه بيدي، لم أشعر بألم، وخزة بسيطة، لكني أردت التخلص منه، لِمَ أحتفظ بشعري طويلا وناعمًا بينما أفتقد الجمال؟ كأن شعري لا يخصني، بل سرقته على غفلة من فتاة جميلة، وتذكرت تلك المقالة التي قرأتها عن صناعة زوائد الشعر، وكيف أنها تصنع في بعض الأماكن من الموتى، هرعت للداخل أرتطم بالأثاث، وحين وصلت للمقص، أجهزت على شعري، مُفرغة كل الغضب بداخلي، خائرة القوى ارتميت على الأرض، وسط شعري المتناثر، أصلي لله أن يتوقف نبضي، أن أختنق، أو تتوقف الأرض عن الدوران، لأني أشعر بحركتها على صدري، وأنها بجبالها، بكل تلك المياه، والبشر المزدحمة بهم، ثقيلة، وخالية وأنا... أنا وحيدة للغاية.

أيقظتني طرقات «آدم» على الباب، لم أستيقظ على الموعد ولم تكن حالتي تسمح بذلك، حين فتحت الباب ورآني، بدت آثار الصدمة على وجهه، خمنت أن منظري مريع، ولكن شعوري بذاتي هو الأكثر إخافة، أخذني من يدي، فتح باب شقته، أحضر كرسيا أجلسني بجوار الباب، ثم وضع على جسدي بطانية، اتجه للداخل بينما أسندت رأسي على الحائط، أستمد منها البرودة، عاد يحمل عصير الليمون، ووقف ينظر إليّ، يداي ترتعدان وكلما رفعت الكوب لفمي تساقطت منه بضع قطرات على البطانية وعلى ملابسي، فأنظر ناحيته معتذرة، ولكنه أشار بيده مدركا سخافة اعتذاري، حين انتهيت عاد يحمل مناديل ورقية، وقبعة، وضع القبعة على رأسي، وقال للمرة الأولى هذا الصباح:

ـ في البداية تفوتين موعدنا، مفسدة قهوتي الصباحية، وهذا أمر سيئ، ثم تقصين شعرك هكذا، لو طلبت مني لاصطحبتك لمكان يستطيعون العناية فيه بالشعر، كما أعتقد أننا يجب أن نذهب للتسوق وشراء ملابس جديدة لكِ.

قلت بصوت خافت به بحة: لكن ملابسي جيدة، ولا أحب التسوق.

ـ ملابسك ليست جيدة، إنها تزيد شعورك بالسوء، وأنتِ أول فتاة ألتقيها تكره التسوق.

ـ ربما لأني لست فتاة ولا أبدو مثلهن، أكره رؤية انعكاسي في المرآة حين أبدل الملابس، أشعر كأني مسخ يرتدي ملابس جيدة.

كان حديثي متقطعا، وأضغط على كل حرف كأني أتعلم الحديث، اقترب مني، مال بجسده قائلا: حان الوقت لنراجع طبيبًا، لقد فقدتِ السيطرة.

أخذت أبكي كشخص كان يشعر أن به خطبًا ما، ثم شخص الطبيب إصابته بالسرطان، أو كطفل يتوسل بعينيه لأمه ألا تحقنه بالدواء، كنت أتوسل بعيني ناظرة إليه ألا يضع يده على مرضي، كأنه لو أشار إليه سيتحول لأمر واقع، وسأكون مريضة، ولست مجرد شخص مصاب بانحراف المزاج.

كرهت مظهري في مرآة مصفف الشعر الذي اصطحبني إليه «آدم»، كان يعبث في شعري مُتبرمًا، مرة لدُهنيته، ومرة للجُرم الذي اقترفته حين قصصته بتلك الطريقة، كان مُحقا، لكني كنت في غنى عن سماع كلمة نقد واحدة، خاصة من شخص لا أعرفه، تجاهلت النظر إليه في المرآة، كما تجاهلت النظر لنفسي، رغم صعوبة ذلك فالمكان كان كثير الأضواء، كل الأسطح به عبارة عن مرآة عاكسة كبيرة، كل سطح يعكس شعري ومظهري السيئ، خفت أن يدفعني كرهي لنفسي، للركض خارجةً فأتسبب لآدم بالإحراج، مُحاولة تجاهل كل تلك الأضواء والانعكاسات أخذت أغفو، تُوقظني حركة يدي المصفف الحادة أحيانا، كأنه ضجر مني، لم أحظ بنوم جيد في البيت، أقل الأصوات تفزعني، لذا كنت أغفو في أي مكان صاخب أو مزدحم، أو قريب من «آدم».

بعد ساعتين حظيت بشعر قصير، بالكاد يلامس عنقي، يتلون بالبني الفاتح، الذي امتزج بلون عيني، لم أكره مظهري الجديد، بل شعرت معه بالخفة، وكلما تحسسته، اضطرب قلبي، اتجهت للمقهى القريب حيث ينتظرني «آدم»، ابتسم لرؤيتي، وتمنيت حينها رغم خوفي من الصور أن يفعل ما اعتاده حين يعجبه شيء ما ويلتقط لي صورة، ولكنه عاد لجلسته، بينما ظلت الكاميرا في مكانها دون أن يمسّها، فشعرت بخيبة أمل، وعاودني الإحساس بضآلتي مُدركة حجم الفجوة بيننا.

تلقيتُ اتصالا من أختي، فبعد زواجها انتقلت للعيش في الخارج، ولانشغالي طيلة الوقت ذهبت أمي لتعيش معها، لم أحزن لذلك، لأن هذا سيجنبني القلق على أمي التي أتركها لأيام طويلة وحدها، لا أنكر أن الوحدة تزداد سوءًا حين أعود للمنزل وأجده فارغًا، وأحيانا بالرغم من عودتي مُتعبة، وكل عظامي متكسرة، كنت أبقى مستيقظة طيلة الليل.

لم أكن قريبة من أختي، بلا شك أحبها، لكننا ببساطة لَم نتفق قط، لو نظرت إلينا لن تجد ما يجمعنا، لا هيئتنا الخارجية ولا طِباعنا، تتأقلم أختي بسهولة مع ما حولها، وتندمج مع الآخرين ببساطة، بينما أنا تزداد الجُدران المُحيطة بي ارتفاعًا، ربما لهذا السبب أو لغيره كانت أقرب مني لأمي وللآخرين، فحين كنت أقضي أيامًا في غرفتي لا أفعل أي شيء، كانت هي في الخارج مع أصدقائها، ومع هذا لم أشعر بالغيرة ناحيتها، كُل منا كانت تعيش بالطريقة المناسبة، كانت تظن أني أفتعل الدراما أحيانا، حين أنغلق في نوبة اكتئاب، حين أفقد شهيتي للطعام، ويتعين على والدتي جذبي أو حتى ادعاء المرض إن لم أتناول الطعام، فكان عليّ حتى وأنا أختنق في بئر عميقة، أن أُمثّل أني بخير وأستمتع بشبابي، هاتفتني اليوم، كان الوقت باكرا جدا، ظننت أن أمي لست

بخير، فرددت عليها بينما عقلي يكاد يشت من القلق، في البداية تحدثنا عن الأمور العادية، وكيف أستمتع بالإجازة (لم أخبرهما عن حقيقة ما حدث، كل ما قلته إني أخذت إجازة لبعض الوقت) ثم قالت: آسفة لإيقاظك، أردت أن أحادثك بينما ماما نائمة.

ـ لا مشكلة، تعرفين أني لا أنام جيدا.

ـ نعم أحيانا تغطين لأيام طويلة، حتى نظنك متِ.

ـ هههه، وأحيانا تمر أيام لا أنام إلا ساعتين، كيف الجميع؟ أفتقدكم.

ـ نحن أيضا، كلنا بخير.

ثم سمعتها تبكي بصوت منخفض.

ـ ماذا هناك، لماذا تبكين؟

ـ أنا آسفة، لم أتفهم جيدا.

ـ ماذا تعنين؟

ـ تذكرين تلك الفترة، حين فقدتِ كل ذلك الوزن ولم تستطيعي حتى الخروج من السرير، حين ذهب بك أبي للمشفى، محاولا إيجاد السبب، وبعد كل تلك الفحوصات، أخبروه أنكِ مصابة باكتئاب حاد، لكنك رفضتِ دخول المشفى، وتوجب على أمي إطعامك بنفسها؟

ـ كيف أنسى هذا، طالما تسببت للجميع في المتاعب!

ـ ممم، كنتِ تتناولين ذلك الدواء، الذي يجعلك تنامين كثيرا، وحين تستيقظين لم أكن أشعر أنكِ معنا، كأن انفعالاتك كلها على الحد الأدنى،

أو كيف أقول هذا، كأنك بطارية فارغة، عدتِ لتناول الطعام معنا، وللحديث إلينا، لكنك لم تعودي أنت، توقفتِ عن هواياتك كلها، حتى أفلامك التي أحببتها، لم تلتفتي إليها حتى حين تعرض على التلفاز.

استيقظتُ ذات مرة بينما تغطين في نوم طويل، كانت أمي جالسة في المطبخ، تشرب القهوة والأضواء مطفأة، سمعت وقتها صوت صرصور الليل واندهشت لذلك، لا تحيط بالبيت أي أراض زراعية، وحين سألت أمي عن هذا، أخبرتني أن الله يعتني بك، لأنك تحبين صوت صرصور الليل، سألتها عن سبب استيقاظها، قصّت علي حُلما رأته، قالت إنها حلمت بكِ عندما كنتِ صغيرة، تسيرين في الشارع ممسكة بيدها، وكعادتك حين مررتما بالقرب من محل لفساتين الأفراح وقفتِ تحدقين فيها، لم يكن في نافذة العرض غير فستان واحد، أخذتِ تحدقين فيه طويلا، وحين نظرت إليك أمي لم تعد تراك طفلة صغيرة، رأتك شابة، ولكن في عينيك حزن شديد، قالت إنها لم تكن تقلق عليك من قبل، كان كل قلقها عليّ، لأني منفتحة وعلاقاتي كثيرة، لم تفهم وقتها، أنك ربما لم تكوني بخير، أخبرتها...

ثم سمعت صوت تنهدها وبدت كما لو كانت تحاول ألا تبكي:

ـ أخبرتها أنها محاولة بائسة منك للفت النظر، أو ربما فتى ما كسر قلبك ولم تستطيعي التعامل مع الأمر، لم أتفهم حينها، هلا سامحتني؟

ـ أنا... حسنا لقد فاجأتني، لكني لم أغضب منكِ يوما، ربما لم أعرف كيف أعبر لكني أحبك، أعرف أنكِ تظنين غير ذلك، وربما أنت محقة، أنا لم أبكِ حين ودعتك في المطار، وفي يوم زفافك كنت أقف بعيدا،

لكني حاولت كثيرا أن أتصرف بصورة طبيعية حين يتعلق الأمر بك، لكنك لم تمنحيني فرصة، ما مناسبة كل هذا، هل حلمتِ بي؟

ـ هههه، لا أبدا، تذكرين مشكلة ابني «أحمد» حين بدأ يتلعثم، وطلبتِ مني عرضه على طبيب؟

ـ آه، نعم.

ـ حسنا، لقد عرضته على طبيب أمراض نفسية، لأن طبيبه رأى أن المشكلة ليست عضوية، ظننته يمزح، فكيف لطفل لم يتعد الثلاث سنوات أن يصاب بمشكلة نفسية، أنا حتى لا أمد يدي عليه بالضرب، لا أحد يؤذيه.

ـ أعرف، أنت أم رائعة.

ثم أخذت تبكي بصوت عال، حاولت تهدئتها حتى توقفت.

ـ أخبرني أنه مصاب باكتئاب، أعني كيف؟ إنه مجرد طفل، ثم نظر لي الطبيب كأني غبية لا أفهم، وطوال الطريق للبيت كنتُ أحتضنه، ووجدتني أفعل معه كما فعلت أمي في تلك الأيام، حتى بدأ يتحسن، حين رأيت ابتسامته بالأمس، كاد قلبي يتوقف، كنت نسيت كم يملك ابتسامة جميلة، وجدت أنها تشبه ابتسامتك، حتى نفس الأشياء تضحكما، شعرت أني مدينة لك باعتذار، وربما أكثر، ربما أتمكن ذات يوم من تعويضك لأني لم أتفهم، لم تكوني تعانين من مزاج سيئ، لكنك فقدتِ الرغبة في كل شيء، أليس كذلك؟

ـ اقتربتِ قليلا، الآن هلا ذهبتِ للنوم، قبل أن تُيقظي الجميع وتتركيني أعود إليه

ـ حسنا، سأتصل ثانية لأطمئنك علينا، لكن عديني أنه لو حدث لكِ مكروه ستخبرينني.

ـ لك هذا.

حين انتهى الاتصال، كانت الساعة الرابعة والنصف صباحا، شعرت أن المكالمة لم تكن حقيقية، فتفقدت هاتفي ثانية، حاولت النوم لم أستطع، فارتديت ملابسي وذهبت لأجلس على الشاطئ، لأول مرة أشعر أن لون السماء الغائمة مخيف، وأن أمواج البحر التي تتكسر على الشاطئ، في الحقيقة تتكسر داخلي، ثم بدأتُ أبكي، لم أتخيل أنه بعد كل تلك السنوات من جلد الذات، يأتي من يحاول نزع السوط من يدك، فتكتشف أن السوط صار جزءًا منك، أظفارك التي أطلتها لتدافع بها عن نفسك، انغرزت في جلدك، كمن اعتاد التعرف على نفسه في مرآة منكسرة، وحين استبدلت بها واحدة سليمة، لم يعد يعرف وجه من هذا الذي يطالعه في المرآة؟!

أريد أن أكون بخير، أخاف الموت جائعة، صدري ممتلئ بما لم أقله، أخاف أن ألعن كل تلك المسافات التي حافظت عليها بيني وبين الآخر، خوفا منه أو خوفا من نفسي، لا أريد التلفت خلفي بحثا عن نفسي التي تركتها في مكان ضللتُ طريق العودة إليه، أريد الموت من فرط الشغف، من كثرة الترحال، لا بحثا عن حب أو عن صاحب أو عن رفقة، ولا أريد الادعاء أني بخير مكتفية بذاتي، أريد ملامسة الآخر، الثرثرة دون توقف، دون أن أخفي شيئا، لا أن يؤلمني الصباح، ولا أشعر أني لست جيدة كفاية.

لا أظن أنه استعمل جرس الباب مرة واحدة في حياته، وهذه المرة كاد الباب ينخلع من طرقاته عليه، لا أحد يزورني هنا، ليس دون اتصال، لذا فكرت أن شيء قد حدث لأسود، لأني لم أسمع نباحه اليوم، فتحت له الباب، كان الغضب يملأ وجهه، وشعره ينتصب على رأسه.

ـ هل لديك البن الذي أعطيته لكِ؟

ـ كان هذا من أسبوعين!

ـ ثم...؟

ـ لقد نفد.

ـ تمزحين، أليس كذلك؟ هلا بحثتِ في الداخل، ربما لديك بعض منه

ـ صدقني لقد نفد، أشرب معك القهوة طيلة الوقت، لذا لا أشتري البن

نظر إليّ، فشعرت أنه سيقتلع وجهي.

ـ لا أعتقد أنك بخير، هل مات شخص ما؟

ـ لم أكن أعرف أن اليوم هو عيد مولد ميخائيل، لم أعرف أن الأقباط يحتفلون بهذا العيد.

ـ لا أعرف عم تتحدث.

ـ ذهبت لأشتري البن فوجدت المحل مغلقًا، حين اتصلت به أخبرني أن اليوم عيد، ولن يفتح المحل اليوم

أعتقد أني ضحكت كما لم أفعل من قبل، الطريقة التي كان يضرب بها الأرض بقدميه، وتمريره يديه في شعره، حتى أصبح فوضويا، ربما ضحكت لنصف ساعة كاملة، بينما كان يحدق فيّ بغضب.

ـ هناك محلات كثيرة لبيع البن.

ـ متى ستفهمين، أخبرتك أن المذاق سيختلف، هناك نوع البن، ودرجة تحميص معينة، ونسبة الزيوت، لقد شربتِ معي أكثر من عشرة كيلوجرامات بن من أنواع مختلفة، ومازلتِ عاجزة عن الفهم، أشعر كأن كل جهدي في تعليمك ضاع سدى

ـ آسفة، ماذا ستفعل؟

ـ سأذهب للقاهرة، هناك رجل أعرفه يصنع بُنًّا جيدا.

ثم قال وهو يركض ناحية السلم:

ـ لا تعتقدي أني سأسامحك، سأجري لك اختبارا حين أعود، وفي حال رسوبك لا مزيد من القهوة.

ـ آسفة أستاذ، سأنتبه أكثر في المرة المقبلة.

جلست أنتظره على السطح، ما زالت الشمس في مكانها المعتاد من السماء، أصبح الجو دافئًا قليلا، وازداد اليوم طولا منذرا برحيل الشتاء، كل عام حين يتغير الجو هكذا، وعلى عكس الكثيرين يصيبني الخوف، فرغمًا عني أحن للشتاء، أحن لنار الموقد التي كنا نلتف حولها، للأمسيات القديمة حيث اعتدت الجلوس في غرفتي مُستمعة لصوت تساقط المطر، ورغم أن أبي توفي في يوم شتوي بارد، إلا أن هذا لم يحملني على كره الشتاء.

أعتقد أنه رأى غيمة الكآبة تحلق فوق رأسي، حيث وقف يتأملني ممسكا بأدوات القهوة وبحقيبة صغيرة في يده، ابتسم الابتسامة التي يمنحها لي كلما التقينا، وضع أدواته على الطاولة ومال ناحيتي، تراجعت كرد فعل، فابتسم أكثر ثم قال: أعرف أن الشتاء قارب على الانتهاء، فكرت أن أشتريه من قبل، ربما منذ اليوم الذي التقيتك فيه، لكن كما تعرفين، التوقيت هو كل شيء.

ـ عمّ تتحدث؟!

ـ عن هذا...

ثم فتح الحقيبة، وتناول معطفا بنيا مصنوعا من الجلد، فرده أمامي

كأنه يستعرضه:

ـ في الحقيقة لقد سئمت هذا المعطف الذي ترتدينه طول الوقت، أعني الذي تختبئين فيه، فاشتريت لكِ هذا.

وضعت يدي على معطفي أتحسسه:

ـ كان هذا المعطف لأبي، حين مات تركنا معظم أشيائه هنا، لم نستطع التخلص منها، ولم نأخذها معنا، حين أتيت من القاهرة لم يكن لدي ما أرتديه، وحين بحثت في ملابس أبي ووجدته، شممت رائحته، وشعرت أني سأكون قريبة منه هكذا، أعرف أن الرائحة ستزول حين أعتادها، أو حين تغطيها رائحتي، لكني لم أستطع التخلي عنه.

ـ هناك سبب آخر جعلني أشتريه.

ـ ما هو؟

ـ موسم التخفيضات، لذا حين ننتهي من القهوة سنشتري ملابس جديدة، هذا المعطف هدية، أما الملابس الأخرى فستدفعين ثمنها.

ابتسمت وأخذت المعطف منه، ذلك المعطف الذي لم يرني أرتديه قط، لأن المرة الوحيدة التي ارتديته فيها كانت يوم رحيلي، وحينها غادرت دون أن أقول وداعًا!

وقفت بجوار «آدم» أستند لسيارة، كانت إضاءة الشارع خافتة قليلا، لم يكن الشارع مزدحمًا، بل عدد قليل من السيارات، على واجهة العمارة خَلفنا، يلمع اسم الطبيب، ورغم أنه يختفي بين لافتات أطباء كُثر، شعرت باسمه يومض في رأسي ويملؤه بالضجيج، أخفيت ذقني وشفتي السفلى أسفل ياقة المعطف تجنبًا للبرد، أو تحسبًا كي لا يتعرف عليّ أي شخص، أتجنب النظر لعيني «آدم» الذي ظل لمدة عشر دقائق كاملة يحدق فيّ، محاولا تشجيعي ونزع التردد والخوف من داخلي، وكطفلة صغيرة أتوسل إليه أن نرحل، أن نغادر هذا المكان، يعيدني للبيت ويتركني أنام، سأستيقظ غدا، أتحسس داخلي لأجد بعض الشروخ الصغيرة التي يمكنني التعايش معها، أكذب، كلانا يعرف ذلك، ربما لن أنجو المرة المقبلة، ببساطة سأستسلم وينتهي كل شيء، هذا ما يُخيف كلينا، ألا أفتح له الباب ذات يوم بعد أن تخلفت عن موعدنا، فيظن أنها لم تقاوم هذه المرة، ثم ينتقل تفكيره للوسيلة التي استخدمتها، ثم يبدأ في لوم نفسه لأنه لم يساعدني، وتلوم أمي نفسها لأنها صدقت أني في إجازة وأني بخير، ثم يمر الوقت ويتكشف لهم أني لم أفعل هذا، بل شيء ما سيطر على جسدي وأخذ يتحكم فيه.

ـ أعرف أنك خائفة، لم أكن لآتي بك هنا لو لم أثق به، أعرفه جيدا.

ـ كيف؟ لا تبدو لي من النوع الذي يحتاج لطبيب نفسي، تتعامل مع هذه الحياة كأنك طفل صبيحة رحلة مدرسية، لديك حبيبة رائعة، أصدقاء كثر، ومتميز في عملك، أحيانا أشعر أني الشبح الأسود في هذه القصة.

ـ ليست الأمور أبدا كما تبدو عليه.

ـ ما المفترض أن يعنيه هذا؟ أسمع هذه الجملة كثيرا، لكن الأمور كما تبدو عليه، أبدو كفوضى عارمة، وفي داخلي فوضى، أقف أمام عيادة طبيب نفسي، الأمور تماما كما تبدو عليه.

ـ حسنا، هل ينفي هذا أنك بحاجة لهذا الطبيب؟

حينها خفضت صوتي الذي لم أنتبه لارتفاعه، ثم رأيت ملامح الانزعاج على وجهه، لم أره هكذا من قبل، أعرف أني أغضبته، لكني لم أتوقع إغضابه لهذا الحد.

ـ أنت محق، ربما أخاف أن يمضي وقت لأكتشف أنه لن يتغير شيء في النهاية، وأني بعد عشر سنوات سأبقى على هذه الحالة، أتذكر أحلامي القديمة وأتساءل كيف وصلت هنا، لكني سأذهب، سأفعل هذا من أجلك.

ـ لا،افعليه من أجل نفسك.

ـ لو أخبرني الطبيب أنه سيمرر ترددًا كهربائيًا في عقلي، من جانب للجانب الآخر، وأنه سيضمن لي أن ذلك سيخرس كل تلك الضوضاء، سأوافق، سأفعل ذلك، لكن سأطلب منه شيئًا واحدًا، من يصطحبني في الطريق لجهاز الصعق... أنت!

لم يكن موعدي مع الطبيب سيئًا، فعدا تحديقي في الباب طيلة الوقت مفكرة بالهرب لم يحدث شيء، كان قريبا مني في السن، ومع هذا كان يتحدث بنبرة هادئة استفزتني أحيانا، بالطبع لم يكن هناك شيزلونج أتمدد عليه، ولا إضاءة خافتة، ولم أحك له عن طفولتي، تحدثت عن أشياء كثيرة متفرقة، عن كُرهي لشكلي، وتهربي من المرايا، عن كراهيتي للنهار ولضوء الشمس، وأن أسوأ شيء بالنسبة لي هو يوم طويل في شهر أغسطس أقضيه في القاهرة، أخبرته أني لا أعرف ما الذي أفعله عموما وليست لدي أدنى فكرة كيف انتهيت هنا، أنا حتى لا أذكر لمَ أردت أن أصبح طبيبة، وبرغم أني لا أتوقف عن التفكير طيلة النهار، لا أصل لأي مكان، أتمنى لو هناك قابس يمكنني نزعه، حتى لو سيُنهي حياتي، تراجع للخلف قليلا مأخوذا كيف لخصت له كل شيء دفعة واحدة، أخبرني أني لم أحك كل شيء كما اعتقدت، بل ما زلت أخفي الكثير، وصف لي أدوية كثيرة تتلاعب بكيمياء مخي، وربما تعيد ضبط الخلل، ابتسمت في سري متسائلة: هل هذا كل شيء، ثرثرة وبضعة أدوية وأعود كالجديدة تماما، لا أعرف، لكني لم أتناول الأدوية حقا، ولم أعد لزيارة الطبيب ثانيا، لم يجادلني «آدم»، لم أبالغ حين أخبرته أنه لو قدر لي أن أذهب لجهاز الصعق سيصطحبني هو، أنا فقط لا أشعر أن تلك الأشياء ستصلح العطب، ربما علي أن أتقبل ذاتي، ذاتي المظلمة... حقًا لا أعرف!

أصبح وجود «سارة» محسوسًا أكثر، كأنها اكتسبت بُعدا جديدًا، يمكنك الشعور به وحتى لمسه، في الاتصالات الهاتفية الطويلة، في ضحكته حين تصله رسالة منها، وفى المرات التي لا أراه فيها، ربما لم يعد يشعر بحاجتي إليه، أو مل من وجودي، مع هذا لم أعد أميل عليه كالسابق، ربما إدراكا لثقل ذاتي، أو لأن حالتي أخذت تتحسن، أو لأني أدركت حقيقة مشاعري تجاهه، ما جعل بقائي بجواره صعبا، فالخط الوهمي بين الصداقة والحب الذي خفت من لمسه في الواقع عبرته في رأسي وقلبي مرات كثيرة، وكنت على وشك، في أي لحظة، أن أقول شيئًا ما بدافع الغيرة، أو برغبة أنانية في امتلاكه، لم يتحدث معي عنها كثيرا، ربما لأنه بالكاد يتحدث عن نفسه، أدركت أن الوقت المتبقي لنا قليل، ولذا كان عليّ أن أنهي الأمور بطريقة صحيحة، لن أستطيع العودة للقاهرة، والعمل بها، شعرت أنها تزداد ثِقَلا مع الوقت، لذا بدأت التفكير جديًا في السفر، تلك الفكرة التي تخليت عنها منذ فترة، عدت إليها من جديد، ووجدتني أتخفف من كل شيء، أتخفف من مشاعري ناحيته، من تعلقي به، وأصبحت بدءا من اللحظة التي اتخذت فيها القرار، أنظر لأوقاتنا معا كأنها مضت، وفي داخلي أخذت أودعه.

قضيت أوقاتًا طويلة مع أبي أثناء عمله في المقاولات، يقضي عمله أن يتسلم الشقق ويُنهي تشطيباتها، في كل مرة عميل جديد ومكان جديد، يصطحبني لألقي النظرة الأولى، وأقضي أوقاتا كثيرة بين عُمال الكهرباء والسباكة والنجارة، أصبح وجودي بينهم معتادًا، فتركوني ألعب بقطع الأخشاب كما علموني استخدام الأدوات، أحببت رائحة الخشب، تطاير النشارة في الضوء، علامات القلم الرصاص على الخشب، لون الغراء الأبيض، ثم بدأت صنع أشياء صغيرة، طاولات، وكراسي، وغرفا كاملة، انبهر أبي بهوايتي الجديدة التي أحببتها، واشترى لي علبة أدوات صغيرة، على شرط ألا أؤذي نفسي، وأن أعمل بها تحت إشرافه، أدخلت الصلصال في الأشياء التي أصنعها، وحين وصلت لمراهقتي، أصبحت أجيد صنع بيوتا كاملة من المنمنمات، حتى اليوم الذي ألقاني فيه الاكتئاب في السرير، لم أستطع تناول الإزميل أو أيا من أدواتي، فقدت كل الأشياء حلاوتها، وألقيت بعلبة الأدوات في خزانتي ونسيت أمرها.

ـ لقد اتخذت قرارا...

نظر إليّ «آدم» كأنما يراني أول مرة، ربما كانت المرة الأولى التي يسمعني فيها أقول هذه الكلمة، كنا نسير على الشاطئ، بعد فترة انقطاع، ازدادت وطأة عمله في الأيام الماضية، فلم نعد نلتقي كثيرا.

ـ حقا؟

ـ سأسافر.

ـ أين؟

ـ ألمانيا، ليس الآن، سأبدأ بدراسة اللغة أولا، وحين أتقنها سأتوجه للعمل هناك، لا يمكنني العودة للقاهرة، ولا يمكنني التسكع هكذا طيلة الوقت، أنا لا أفعل شيئا غير التحدث إليك وشرب القهوة.

ـ وهل هذا سيئ؟

ـ تعرف جيدا ماذا أعني! لو لم أتخذ خطوة الآن في أي طريق، سأظل عالقة هنا للأبد، رغم أني هنا بخير،لا يمكن الاستمرار هكذا، لقد سجلت اسمي بالأمس في الكورس، سأبدأ الأسبوع المقبل، لو سارت الأمور بخير، ربما أرحل قريبا

ـ حسنا، إن كانت هذه رغبتك، رغم أن طعم القهوة سيتغير، وسأفتقد مواعيدنا الصباحية هذه.

ـ تتحدث كأني حزمت حقائبي!

ـ أتحدث لأنك اتخذت قرارا، القرار الأول منذ التقيتك.

منحني ابتسامته المعتادة، ثم سار يخفض رأسه قليلا، لا أعرف بمَ شعرت حينها، ربما لو أخبرني أنها فكرة سيئة، أو أنه سيفتقد أكثر من مجرد مواعيدنا الصباحية، ربما لو طلب مني البقاء حتى لو كصديقة، لا أعرف ربما لم يكن رأيي ليتغير، ربما حدثت كل هذه الأشياء بالطريقة التي تلائمنا، ومهما كانت الطرق التي اتخذناها سننتهي هنا دوما.

اشتريت ملابس صيفية، احتضنت معطف أبي وملابسه القديمة، واحتفظت بها في الخزانة، بدأت شوارع الإسكندرية تزدحم، وأصبح الجو دافئًا.

كعادتها الأيام تمر بإيقاعها الذي لا يتغير أبدا، لتجد نفسك تحادث صديقك وتخبره أنه منذ عشر سنوات كنتم هنا في هذا المكان، مهما حاولت التمسك بتلك الأيام أجدها تنفلت بين أصابعي، فوقفت أراقبها بمنتهى السكينة، كما تراقب المشهد من نافذة قطار لا يتوقف أبدا، في الصباح كنت أنغمس في عمل المُصغرات، تحديدًا في صنع بيت أهديه لـ«آدم»، اهتممت بأدق التفاصيل، وضعت في شرفته كرسيين، كما صنعت أدوات قهوة، طليت البيت بالألوان التي طالما تخيلتها، كما صنعت أمامه حديقة تُحاكي الحقيقية، أردت لهذا البيت أن يشبه البيت الذي طالما حلمت بسكناه، أردت أن أهديه حلمي، كأني أهديه بزة زفاف لن أراه يرتديها أبدا، وعصرا أتوجه للكورس، ويصطحبني «آدم» لنتمشى بعدها، ازداد شعري طولا، بضعة سنتيمرات قليلة، كنت في انتظار رد من المشفى، لأجهز أوراقي، لا أعرف إن كنت بخير الآن، أو سيأتي اليوم الذي أتخلص فيه من ذاك الثقل على صدري، لكني في هذه اللحظة، بينما أسير بجواره ويحادثني، لا أشعر بأية خطب، كل تلك الشروخ التي أحدق إليها التأمت، أعرف أنها لن تختفي، ستؤلمني من وقت لآخر، لكني أعرف أنه عليّ تقبلها، وربما الوقوع في حبها.

يوم رحيلي التقينا صباحًا، لم أذكر له رحيلي، كلانا يعرف أنه اليوم، لذا تجنبنا الحديث عنه، كان سيغادر لجلسة تصوير، لذا شربنا القهوة، وظللنا صامتين طول الوقت، لم أعرف كيف أقول شكرا، أو سأفتقدك، لم نتحدث إلا عن الطقس، وكيف يكره الإسكندرية حين يغادرها الشتاء، وقفت قليلا أتأمله في صمت، وطلبت منه الرحيل قبلي، أردت النظر لظهره يغادر، والاحتفاظ بصورته حتى يختفي عند المنعطف، أو ربما الاحتفاظ بإحساس أننا ربما لن نلتقي ثانية، ذلك الوخز في صدري لأني أدرك جيدًا أن هذا أقرب ما سأكون منه يومًا ما.

بعد عودتي للبيت، حزمت حقائبي، ورغم أن الجو دافئي ارتديت المعطف الذي أهداه لي، حملت البيت المُصغّر، وضعته أمام شقته، ثم رحلت محاولة ألا أنظر للخلف كي أتمكن من العودة.

ـ في بعض الصباحات أستيقظ لأجدك في رأسي، كأنك أقمت في داخلها طوال الليل، أقلب هاتفي بحثًا عن رسالة منك، عن أي شيء يخصك، لكني أفشل في تتبع وجودك، أفكر أن أُهاتفك، أن أقول كيف صباحك؟ أو لا أقول أي شيء على الإطلاق، وأعرف أنك ستتفهم ذلك وتثرثر بالنيابة عن كلينا، لكني أعجز عن ذلك، فرغم قربي منك تبقى آلاف الأشياء تفصل بيننا...

ـ وماذا عن الأمسيات؟! بعد أن أنتهي من سهرة حافلة، أعود للبيت فيزعجني صمته، أفكر لو كانت هنا، لتحدثت معها على السطح حتى الصباح، تزعجكِ الصباحات الصامتة، أما أنا فيدفعني الليل للجنون.

ـ منذ بضعة أيام جلست إلى صديقة في المقهى، الجو مثالي، تتخلل أشعة الشمس السحب المتناثرة، فتشعر بها دافئة على جسمك، ليست كشمس القاهرة الوقحة التي تسطع فوق رأسك تماما، القهوة جيدة، حتى رائحتها تشي بجودة البن، من بعيد كان كل شيء بلا أي شائبة.

ـ إذن فالقهوة كانت جيدة؟

ـ هل هذا ما جذب انتباهك؟

ـ نعم، هههههه، هل صديقتك جميلة؟

ـ اللعنة عليك! بعد انتهائها من الحديث، جاء دوري، وجدتني لا أجد ما أقوله، لا أعرف، كأني استنزفت الأحاسيس بداخلي، وقلت الكثير، فلم يبق هناك جديد، ربما استهلكني كل من مروا بي، غيروا موضع الأشياء بداخلي، أو أخذوا أكثر من حقهم، وربما ما تركوه في داخلي كان معطوبا، سيئا، فأفسد كل شيء، ما أعرفه جيدا أني لا أجد ما أمنحه لأي شخص، اكتشفت أني أخاف أن أقترب كثيرا، أحيانا أتعامل بميكانيكية شديدة، كمن ينظر من الخارج، ربما هي طريقتي في تجنب الأذى، لكن... لِمَ أشعر بوجود شيء خاطئ.

ـ لأنه خاطئ، امنحي نفسك وقتًا، تستعيدي كل تلك القطع الناقصة

من داخلك، وتملأي الفراغات بقطع جديدة

ـ لكني لا أثق بنفسي، ماذا لو فعلت هذا ثم يأتي من يسرقني من جديد؟!

ـ تستبدلينها أيضا.

ـ إلامَ؟ حتى أستنفد؟

ـ حتى الموت.

ـ أشعر أني مازلت طفلة صغيرة، أحتاج لمن يأخذني من يدي، يرافقني في الطريق، وأحيانا أحتاج لرفيق لَعِب، ألعب معه طيلة اليوم حتى يغلبني التعب، ثم أُلقي بجسدي على السرير فأغفو دون تفكير، وأحتاج للصمت، لشخص أصمت معه، ولا أشعر بعبء هذا الصمت، كأن الصمت بيننا طبيعي كالكلام

ـ صمت لا يشبه الصفحات الفارغة من كتاب؟!

ـ ولا يكون شبيهًا بلقائك بشخص قريب منك بعد غياب، فلا تجد ما تقوله، لو حدث هذا لنا، ماذا سنفعل؟

ـ سنبتعد.

ـ هكذا؟

ـ بهذه البساطة.

ـ هل بدأ الشتاء؟

ـ ألم يبدأ في الإسكندرية؟

ـ لا، أفتقده، كل الأشياء تتغير هنا مع قدوم الشتاء، كان المكان يتحول لواحد آخر، يبدو الصيف كأنه مستمر من العام الماضي.

ـ هذا شعور طبيعي، بعد انفصالك عن «سارة»

ـ أعرف!

ـ لا يمكنك تجاهل هذا إلى الأبد، يجب أن نتحدث، أن تخبرني حقيقة ما حدث

ـ لكن لم يحدث أي شيء، أراد كل منا شيئًا مختلفًا، حاولنا تأجيل هذا الخلاف كثيرا، حاولنا حتى الالتفاف حوله، لكن كنا سنصل في النهاية لنفس النتيجة

ـ ألم تستطع منحها ما أرادته؟

ـ حاولت.

ـ آسفة.

ـ فقط حاولي قضاء الشتاء المقبل هنا.

ـ إنها تثلج.

ـ تمطر.

ـ أفكر في...

ـ القهوة!

أحيانا أقوم بنزهات في عقلي، كأن أتمشى معك في وسط البلد، لستَ مسرعا فينهكني اللحاق بك، ولا بطيئا فأشرد عنك، تتلامس أكتافنا أحيانا، ويعبر بيننا المارة فنعود ونلتقي، أود قول كل شيء، والحكي لساعة متأخرة، تدعوني للقهوة، فيستمر اليوم في عقلي للأبد.

عزيزي

يجب علي تحذيرك، فهذه رسالة طويلة

مرت أسابيع منذ حديثنا الأخير، أنت لا تعرف كيف يعيدني صوتك للأيام القديمة، لقد عاودني الاكتئاب مجددا، يبدو أني لن أتخلص منه أبدا، ظننت أني منحته كل شيء، منحته كل ما لدي، منحته عقلي، وجسدي فترك بعض التجاعيد على وجهي، منحته كل الوقت فسلب مني الحب والصداقة والعائلة، تركني هشة ووحيدة، ترك قلبي مشروخًا، وجروحي لا تلتئم، ظننت أني كفّرت عن كل خطاياي وحين أمثل أمام الله سيغفر لي، كيف يحاسبني على الحياة التي أثقلتني حتى التعب؟ عن عمري الذي قضيته أبكي دون أن أفهم لماذا؟

ولكني كالكثيرين ممتلئة بالخطايا، وربما أكبرها هي رغبتي في حياة عادية، حين يمر بجواري ثنائي متشابك الأيدي، أتطلع إليهما، أتخيل نفسي مكان الفتاة، أرغب أن ألامس يده، أن يغازلني وربما يعانقني.

تلك الرغبة تشعرني بالنقص، وأني لا أحد، فارغة من الداخل، ومعطوبة.

الأيام المقبلة لن تكون سهلة، سأقاوم، سأجلس إلى الوحدة والاكتئاب

أتفاوض معهما، نتوصل لحل وسط، لا أعرف ما الذي أملكه ويغريهما لهذا الحدّ؟!

هل لديك فكرة؟! أرجوك أنر بصيرتي.

ملحوظة:

لست بحاجة للمساعدة، تعلمت الوقوف وحدي، هذه مجرد فضفضة مسائية، ربما في الصباح سأكون بخير، لكني أتمني رؤيتك.

دمت بخير، بل دمت سعيدًا.

لماذا يتعاطف العالم مع مرضى السرطان ولا يتعاطف معنا؟!

يتعاملون مع هذا المرض كأنه الأسوأ الذي قد يحدث لك، يعتبرون من تغلبوا عليه أبطالا، لكن ماذا عنا؟!

نحن، ضحايا الاكتئاب، هل يتخيلون شعورنا حين نستيقظ كل صباح، حين نجرجر أجسادنا للعمل، هل لديهم فكرة عن شعوري حين أتطلع في المرآة، عن ارتدائي للقفازات كي أخفي البقع البيضاء في يدي؟ أشعر أحيانا أني لو غادرت السرير سأتهشم لقطع صغيرة، أو أنه عند الباب ينتظرني خبر سيئ، خبر لا أقوى على تَلقيه.

مع السرطان أنت تحارب الموت، تهرب منه، تخافه، لكن مع الاكتئاب تخاف الحياة أكثر، تخاف أن تهزمك، ورغم رغبتك في الموت، لا تريد للحياة أن تتسلل بين أطراف أصابعك، فنحن نحبها، لكن حبنا لها نظري فقط، لأنها لم تكن يوما جيدة معنا، فنحن نحب اللمة ولكننا نخشاها، نحب الصخب، الضجيج، الشارع، الهواء، والبدايات، نحب

الأحضان، اللحظات العفوية، الكلام المرتجل، تلامس الأيدي، سهرات الصيف، نحب الحب، لكننا نخاف أن يأتي العالم على القشة التي تُبقينا على قيد الحياة، أن يختل توازننا، أن نسقط وحين نفقد الرغبة في الحياة، ونرحل، يصفوننا بالكفر ويلعنوننا.

لا أحد يلومك لو أصبت بالسرطان، كما أنهم ينضمون إليك في حربك معه

لكننا نُلام لأننا ضعاف، أو لأننا لا نملك إيمانا قويا، كما نخوض حربنا معه وحدنا، لأنه لا يستطيع أحد تحملنا، ونخاف أن نستند على كتف فيتخلى عنا.

لا يفهمون يا «آدم «كيف أشعر بالبرد في حضن أمي، أو أشعر بالوحدة حين أتحدث مع أقرب الناس لي حتى معك أنت.

في معظم الأيام أكون بخير، وفي الأيام السيئة أريد أن أكون وحدي معك، هل تفهمني؟

ـ أين تذهب الأشياء التي أردنا فعلها؟ الكلمات التي لم نقلها؟ الأشخاص الذين ابتعدنا عنهم في اللحظة التي أردنا أن نخطو تجاههم؟ الأماكن التي وعدنا أنفسنا بالعودة إليها لكننا جَبُنّا أو نسينا؟ طيلة الوقت أفكر في الأشخاص الذين أردت التحدث إليهم للأبد وأن ألتقيهم حتى النهاية، في الرحلات التي خططت لها، مع علمي باستحالتها، ما أعرفه أن تلك الأشياء تتراكم خلفي ثم تطاردني فأبقى دائما أتلفت إليها أو أحاول الهرب منها.

ـ أذكر أني فكرت في هذا من قبل، كيف لتختلف حياتي لو سرت في طرق مختلفة، لو اتخذت خيارات أخرى؟

ـ ربما هناك مكان ما، بل أماكن كثيرة، تنتج عن تلك الاحتمالات اللامتناهية، أشخاص يشبهونني، نفس الوجه والجسد، لكن هل أرواحهم ثقيلة مثل روحي؟ هل سأكون سعيدة؟

أحيانا أشعر بالسعادة، كأني طفلة في العاشرة، تمر في رواق طويل ساعة الظهيرة، الوقت بطيء لكني لا أشعر بالملل، أقف في مواجهة النافذة، تداعب الشمس يدي بينما لا أشعر بأي خطب، الغد موجود كلغز سيكشف عن نفسه في الوقت المناسب، يحمل بين طياته الحب،

الصداقة، الونس، رحلات لبلاد بعيدة، تتحدث لغرباء لن تلتقيهم مجددا، تتذوق قهوة لن تشبه غيرها في أي مكان، تُنهي كتابا قائلا لن أقرا مثله أبدا، يرتعد قلبك، وتتسلل الشمس من بين أصابعك، ثم تمضي في الرواق منتشيًا لكل تلك الاحتمالات.

وفي النهاية ما الذي أعرفه أنا عن السعادة؟

في صغرى امتلأت كوابيسي بوحوشٍ ذات عين واحدة، أو قد تخفي نفسها بكفن أبيض بلا أكمام، تظهر فجأة من العدم، وتتجول بصوت مسموع، أفتح عيني أجدني غارقة في العرق، أحاول التقاط أنفاسي، ثم أعود للنوم مستمعة لصوت تنفس أبي آتيًا من الغرفة المجاورة، فيتسرب الأمان لأكثر الأماكن إظلامًا بداخلي.

لكني الآن لا أحلم إلا بالقطار، قطار قديم مهترئ، نوافذه بلا زجاج، وأبوابه متهالكة، يبدأ القطار في التحرك، عليّ اللحاق به، لا يمكنني انتظار قطار آخر، شيء ما يتعلق بهذا القطار وحده، لكن قدميّ ثقيلتان، ومهما ركضت يبتعد أكثر، يخفت صوت محركاته، ويتحول لشريط يمتد ناحية الأفق، تاركا إياي على الرصيف، لا أعرف إن كان القطار سيحملني إلى البيت، أم أن البيت خلفي في هذه المدينة التي أهرب منها، ثم أفتح عيني، بلا أنفاس متقطعة، ودون ذرة عرق واحدة، لا أسمع صوت أنفاس أبي، أتطلع في هاتفي بِحُكم العادة، أو بحثًا عن شيء ما، ربما عن الأمان، أو عن ضوء ينبعث في المكان المظلم بداخلي.

أخبرني أبي ذات مرة أني مختلفة، كنت صغيرة، أرى العالم ممتدًا أمامي، وبعد خطوة واحدة، حين أكبر قليلا ستتحقق أحلامي، لكن عن أي اختلاف كان يتحدث؟ لأني حين تطلعت لوجهي في المرآة لم أرَ غير ملامح عادية: عينين بنيتين ضيقتين، ووجه لا يحمل أي انفعالات، لا أتمتع بمعدل ذكاء عال، ولا بسرعة بديهة، فتاة عادية، تمر في الطرقات فلا يمنحها شخص ما نظرة ثانية، ولكنه لم يكن مخطئا تماما، فذلك الإحساس بداخلي مختلف.

حين وصلت لفترة المراهقة، وبينما أقف مع زميلاتي يضحكن، أشعر بشيء جاثم على صدري، عندما حكيت لأمي أخبرتني أنها «قبضة قلب» تسبق حدوث السوء، وضعت يدي على قلبي خائفة، وكلما مر يوم بسلام أتنهد كأني تجنبت خطرًا لا أعرفه، حتى مات أبي وازداد الانقباض في داخلي، يجعلني أستيقظ راغبة في الاستلقاء بالسرير، أن أبقى مختبئة في غرفتي، دون شعور مستمر بتراب يملأ عيني، جاعلاً الصورة ضبابية، بلا لون أو رائحة.

ذاك الشعور ليس مجرد «قبضة قلب» بل امرأة عجوز تولول، رجل أربعيني يتمدد بكرشه السمين في شراييني، أو وحش لا يستمع لي، يتضخم في بعض الأيام فيصبح أكبر مني، أكبر من الجزء المتعلق بالحياة.

هل رأيت قَرنية ميت من قبل؟

حين تنظر في عينيه، وتراهما جامدتين، ستحاول العثور على اللمعان الذي عرفته بهما، أن تعثر على الشخص خلفهما، لكنك ستصطدم بفراغ، ستشعر بهما باردتين وحادتين كالزجاج، لو أطلت التحديق قليلاً، ربما يبتلعك شيء، يجعلك تهوي ثم تتكسر لقطعٍ صغيرة، وقد لا تعود أبداً.

في فيلمٍ لا أذكره جيدا، يجلس الطلبة حول طاولة طعام طويلة، كلٌ يقص حلمه، مَن يرغب أن يمتهن الطب أو الهندسة، أو يتولى أعمال أبيه، إلا واحد، أخذ يراقب فتاة من النافذة، ثم قال: لا أريد أن أكبر وحيدا.

كفتيل اشتعل في رأسي، كضوء التمع ثم اختفى، أو كرجفة برد سرت في جسدي، علمتُ أني سأموت وحيدة.

ماذا لو كانت الوِحدة هي الأساس؟!

لا أعني بالنسبة لي فقط، بل للآخرين أيضا، فطيلة حياتنا نُحاط بالبشر، نتقرب إليهم، نُحادثهم، وربما في مرحلة ما نتوقف عن الحديث، مُدركين أن ما نقوله لا نشعر به حقًا، كأننا نؤدي دورًا كُتب لنا، وكل تلك الأحاديث المطولة أكانت افتراضية أم لا، لا تجعلنا نقترب مسافة سنتيمتر واحد من الآخر، كأنه يتقوقع في شرنقة ما في الداخل، ويفصلنا جدار زجاجي، ينقل صورة ضبابية وصوتًا ضعيفًا.

حين أتطلع لغريب ما، أتساءل: هل تُباغته الوحدة قبل النوم؟ هل يبحث عن شخص ما يثرثر معه؟ يخبره تفاصيل يومه، يحكي عاداته، بكم قطعة سكر يتناول الشاي، يحكي عن فيلمه المفضل، وعن سطر خطه في رواية، ربما هو مثلي، تجذبه الألحان الحزينة، والقطارات المسافرة، وأغنيات الرحالة، ينقبض قلبه لكل تلك الأشياء دون أن يفهم لها سببًا، مُدركًا أن بداخله عطبًا ما، أو ربما بكل بساطة يتجاهل كل هذا، ويعود لروتينه اليومي.

كأن كل تلك السنوات ليست إلا يومًا واحدًا طويلاً، فتحت فيه عيني على الغرفة ذاتها، فعلت كل الروتين الصباحي، حملت حقيبة ظهري الثقيلة إلى المدرسة، جلست بجوار الشباك، أتابع تغير الفصول، أتابع الأيام تمر، لم أتعلق بأحد، ولم أكون صداقات حقيقية، كأن صفحات حياتي تنقلب ذاتيًا، وفي كل صفحة وجدت السطر ذاته لا يتغير، ومع صوت الجرس جمعت كتبي المتناثرة، ألقيت نظرة أخيرة من الشباك، وفي الطريق للبيت شعرت أني نسيت شيئًا ما لا أعرف ما هو، تفقدت الحقيبة بحثا عن شيء لا أعرف شكله، لكن لو وقعت عيني عليه سأتذكره، لم أعثر عليه، ومع تأخر الوقت لم أستطع العودة للمدرسة والبحث عنه.

لا أنكر أني فكرت مراتٍ كثيرة في التوقف عن مراسلته، أن أتجاهل الرسائل كأنها لم تصلني، أتصرف بفتور ناحيته، أو أخبره أن تلك العلاقة يجدر بها الانتهاء، لكن في كل مرة يُومض فيها هاتفي، وأرى اسمه، تَلوح ابتسامة بلهاء لاإرادية على وجهي، وأشعر أني عدت للإسكندرية بَغتة أتناول معه القهوة، رسائل قصيرة، أوطويلة تشبه الخطابات، يبدأها بعزيزتي وأحيانا لا يعنونها، يثرثر عن الطقس، عن صوره، عن حادث ما، وقد يدخل في صمت يمتد لأسابيع، فأفتقده، وأتفقد هاتفي، ربما لم أنتبه لوصول رسالة، فأدرك أن رغبتي في إنهاء العلاقة كاذبة.

أفكر كيف لهذه القصة أن تنتهي، وأعرف أنها لا تحمل لي بأي حال نهاية سعيدة، فأتناسى ذلك الجزء مؤقتا، وأعود لأقرأ سطور رسائله أَعلق فيها، تُخيفني كلمة وداعا التي قد تأتي في نوبة يأس مني أوغَيرة، تأتي دون أن أقول ما بداخلي، ما يقتلني كلما ابتلعته، ما جعلني أهرب بعيدًا عن هذا الرجل، لعلي أقترب ولو قليلا منه.

هناك شيء ما يتعلق باللون الأسود، يجمع بيني وبين «آدم»، لدرجة أن «آدم» أطلق على الكلب الخاص به هذا الاسم، كما أن الكافيه الذي اصطحبني إليه أول مرة يُدعى (أسود)، شيء مريح باللون الأسود، تماما كالتعامل مع شخص سيئ يحذرك نفسه ويطلب إليك تجنبه.

في الصباح تلقى هاتفي رسالة من «أمجد»، يضرب لي موعدًا هنا، تعجبت كيف لأمجد معرفة ارتباطي بهذا المكان، ثم تذكرت أن «آدم» ساهم في تزيين كل حيطان الكافيه بصوره، حتى إن له بعض الصور الشخصية هنا، كان مسموحًا له بالدخول للمطبخ وإعداد قهوته الخاصة، الأمر الذي طالما آثار إعجابي.

عندما مررت من الباب الزجاجي اتجه نظري للطاولة الخاصة بنا، كانت في الركن، تحت رف من الكتب، بعيدة عن كل الصخب وقريبة من رائحة القهوة التي تُعد في المطبخ، لقد قرأت معظم الكتب على هذا الرف، لقد قرأت بعضها أكثر من مرة، فيمكنني أن أتلو غيبًا وصف سومابر في (سبوتينك الحبيبة) أو أن أجد الشبه بين «آدم» ويوشي في (المطبخ)، كان هذا عالمي الخاص الدافئ المُعتم والحالم في آن، جلست على طاولة بعيدة عن طاولتي المعتادة، في مواجهة الباب، ليتعرف علي «أمجد» فور دخوله لأنه لم ير لي أية صور، يأتي صوت ستينج مُرددا كلمات مُعقدة عن طواحين في عقله، يُلقيها بغاية السلاسة كأن كل تلك المعارك العقلية مُسلم بها، حين انفتح الباب اهتز الجرس المُعلق خلفه، فرفعت نظري لأراه أمامي، فعلى العكس من «آدم»، كل شيء في «أمجد» كان يشي بعمله كمبدع، إن كان مُمكنا لشخص أن يمتهن الإبداع، فشعره الطويل المُرسل على كتفيه، والأساور الكثيرة في معصمه، تدفعك لتخمين عمله في الحال، وكالعادة وجدتني أفتقد البساطة التي أحاطت بآدم، ابتسمت له وهززت رأسي تأكيدا على سؤال لم يطرحه، اقترب من طاولتي، سلمت عليه وجلسنا، كان يرفع نظره ليتأملني، يتساءل كيف لفتاة صغيرة السن أن تحظى بكل هذا الشعر الأبيض،

كما أني لم أرتد قفازات أو أخفى يدي بكُم الملابس، تركت البقع البيضاء في يدي تعلن عن نفسها، كما تركت خصلات شعري دون تلوين، وضعت بعض الكحل وانتهى الأمر، ومع هذا كنت مرتاحة، كأني بعد سنوات طويلة من حربي مع جلدي استسلمت، دون أن أعرف من هزم الآخر أو ببساطة لم أكترث، دفعت بعض الخصلات بعيدا عن وجهي قائلة: لم أصبغه، هكذا هو أبيض، رد «أمجد» مُجاملا: بل فضي، أخيرا التقينا، تبدين مختلفة عن كل ما توقعته.

قلت بمرح: هل خيبت ظنك؟

ـ لاعلى العكس، أعرف جيدا نوع الأشخاص المحيطين بآدم، وأنتِ واحدة من هؤلاء.

ـ هل تحيط به فتيات كثيرات يشبهنني؟

ـ لم أقصد هذا، ما عنيته أننا منذ تحدثنا أول مرة، رأيت كم أنك مختلفة، والآن تبدين هكذا أيضا.

ـ هل من عادة «آدم» أن يحيط نفسه بالمختلفين؟

ـ يرتاح إليهم، يقول إنهم يرون بشكل أفضل ويفهمون ما لا يُدركه الشخص العادي، أعرف أنك تبحثين عنه، ولكن كما أخبرتك ليست لدي أي فكرة عن مكانه

ـ ظننت أن أقرب أصدقائه إليه يعرف، أو على الأقل قد تملك فكرة تساعدني بها

ـ ما أظنه أنه لا يريد أن يُعثر عليه، لذا اختفى دون أثر.

ـ لكن ماذا حدث؟ حين تحدثت إليه آخر مرة، كان صوته يشوبه الحزن وثقيل لكنه لم يخبرني بأي شيء.

ـ حدث هذا من أسبوعين، أليس كذلك؟

ـ نعم، هل حدث شيء ما؟

ـ لقد توفي صديق لنا، أو بالأحرى قُتل.

ـ كيف؟

ـ عُذب حتى الموت في العقرب.

ـ ماذا؟

ـ ألم تسمعي من قبل عن العقرب؟ السجن الصحراوي حيث لا يعود منه أي شخص، الحوائط الإسمنتية، البرد القارس دون غطاء، مواعيد الزيارة في السادسة صباحا؟

ـ سمعت لكني لم أتخيل من قبل.

ـ لأنه ليست لدى أي شخص طبيعي القدرة على تخيل ما يحدث هناك، «عرفان» أُلقي هناك وخرج فقط منذ أسبوعين جثة هامدة.

ـ كان صديقكما؟

ـ كان ثالثنا والأقرب لآدم، هل حدثكِ «آدم» عن «جميل»؟

ـ الرجل الذي علم «آدم» التصوير وأبوه الروحي.

ـ بالضبط، أعلن ذلك الرجل المجنون عن كورس لتعليم أساسيات

التصوير، من بين خمسين شخصًا متقدمًا، وقع الاختيار على عشرين، من بينهم نحن الثلاثة، كنت زميل دراسة لآدم، ولم نكن نعرف «عرفان» حينها، وحين بدأ أول درس، وقف «جميل» مستخدما كاميرا قديمة، وقال إنه لن يستخدم أي كاميرات حديثة، لذا الدرس الثاني حضره ثلاثة فقط، يمكنك القول إنني أسوأهم، مجرد مصور حفلات، لم أؤمن قط بها

ـ ما هي؟

ـ مصر، لا أعتقد أن «آدم» يريد أن يعثر عليه أحد، لذا توقفي عن تضييع الوقت والبحث عنه، سيظهر حين يجد نفسه قادرا على مواجهة العالم.

ـ ماذا لو حدث له شيء ما؟ ماذا لو لم يكن بخير؟

ـ هو بخير، هذه عادته أن يختفي دون اكتراث لأي شخص وأن يعاود الظهور مجددا دون إبداء أي تبريرات.

ـ أنا لا أعرفه جيدا مثلك، وأعتقد أني لم أعتد على طباعه بشكل كامل، لكني قلقة حقا، فطيلة الوقت الذي عرفته به، بدا متماسكا، متصالحا مع كل ما حوله، كان يملك ذاك النوع من السلام النفسي، الذي تصل إليه بعد خوضك حروبًا طويلة، كنت أشعر به مجرد أن أكون بجواره، كأن الأرض تُبطئ من حركتها ويصمت الضجيج، لا ترفع حاجبك وتنظر إليّ هكذا كأني أبالغ!

ـ ليست مبالغة ولكنك خلطتِ بين شيئين مختلفين تماما، السلام

والاستسلام، لا يملك «آدم» أي سلام نفسي، هو فقط مستسلم لكل شيء، كفر بكل ما آمن به يوما، وأكثر ما كفر به هو نفسه.

ـ هههه، تمزح، أليس كذلك؟ لقد كفرت بنفسي من قبل وأعرف كيف يحولك ذلك لشخص فارغ، ليس لديك ما تمنحه للآخر، لقد أعطاني الكثير، وأعاد لي إيماني بذاتي، لا أعتقد أن بإمكانه فعل ذلك إن كان كافرًا بنفسه.

ـ لقد التقيتِ «آدم» منذ فترة قصيرة نسبيا، لا تعرفين الكثير عن حياته لأنه لا يعرف الحكي، لكن مع الوقت ستكتشفين كل شيء ستتعرفين للوجه الآخر، وجه رجل كفر بنفسه وبالآخرين ولا يتحمل أي ضغط.

ـ هكذا تثير قلقي أكثر.

ـ أنا فقط مُغتاظ منك، حين أخبرني «آدم» عن صديقته التي يلتقيها كل صباح على البحر، وحين تحادثنا على النت، توقعت معرفتك به، ألا تكوني كالآخرين ترينه فقط من الخارج، تلك النبرة التي فاجأتك في صوته، كانت هناك دائما، أسفل المرح والأحاديث المنمقة، السؤال التي تدينين لآدم بطرحه ليس أين هو؟ بل من هو؟

لم يشرب قهوته، بل لملم أشياءه عن الطاولة بغضب، وخرج دون أن يقول شيئا، أعرف أني أغضبته وأن جزءًا كبيرًا من حديثه صحيح، فجلست أتأمل صور «آدم» المحيطة بي، كان يبتسم في كل الصور تقريبًا، يُحيط به الكثير من الأشخاص، يقفز على الثلج أحيانا، أو يتناول الطعام، أو يتصفح كتاب، كانت صورًا شخصية أكثر منها دعائية، وفي إحدى الصور التي التُقطت على غفلة كان جالسًا بشرود، نهضت من مقعدي،

واقتربت من الصورة محدقة بها، محاولة النظر في عينيه، لألتقي بالحزن الذي لمحت شبحه العام الماضي.

بعد عودتي اتجهت للسطح، وقفت بين أصص الزرع، مستندة على السور، مُلقية كل جسدي عليه بثقة أنه لن يهوي بي، تماما كما رأيت «آدم» يفعل، راجعت في ذهني ما أعرفه عنه، أعدت أحاديثنا الطويلة في رأسي، محاولة استخلاص بعض الحقائق، أعرف أن لونه المفضل هو الأسود، وأنه يفضل القهوة القوية الإسبرسو خالية من أي إضافات، لا يكوي ملابسه أبدا، روايته المفضلة (الغابة النرويجية)، كاميراه من نوع Nikon D80 بعدسة أحادية وجودة صورة عشرة ملايين بيكسل، كما أعرف الوضع الذي يتخذه جسده عند التصوير، أعرف أنه يستند بركبته على الأرض ويميل قليلا للخلف، وحين يفعل ذلك يكشف قميصه عن تفاصيل جسده، أعرف أن أصابعه طويلة قليلا وبها ارتجافة لا تكاد تُلحظ، أعرف قائمة أغانيه المفضلة والحكايات وراء كل أغنية، وأن بداخله خوفًا كبيرًا لكني لا أعرف لماذا، لا أعرف تاريخ ميلاده، دراسته، لماذا تعلم التصوير، أين التقى بسارة، لم يحكِ لي عن أحلامه من قبل، وأعتقد أني ربما لم أعرفه حقًا.

وجدت على هاتفي رسالة اعتذار من «أمجد»، رسالة مقتضبة، توحي أن اعتذاره بدافع من اللياقة فقط، ويحدد لي موعدًا ساعة العصاري على الشاطئ، فكرت أنه اختلاف آخر، فآدم يعشق المواعيد الصباحية، لم أفهم يوما لماذا، لم أسأله وكعادته لا يقول غير ما يريده، ارتديت ملابسي وصففت شعري تاركة بعض الخصلات البيضاء، لا أعرف ما الذي يوحي به مظهري ولا أكترث.

على السلم مررت بالبواب جالسًا على مقعده بجوار البوابة، أشاح بنظره حين رآني، اقتربت منه، شكرته على سقاية النباتات طيلة هذه الفترة، حينها تطلع ناحيتي فتشجعت لسؤاله عن «آدم»، لم أتوقع معرفته بالكثير، لكني أعرف أن «آدم» يعقد صداقات مع الجميع، حتى آخر الأشخاص المتوقعين، عادت نظرته زجاجية مجددا، وأخبرني أن آخر مرة رآه فيها كانت منذ أسبوعين، كان يصطحب كلبه معه، ولم يره منذ ذاك اليوم، وكأن هوة عميقة انفتحت في صدري، كأن غيابه حتى هذه اللحظة كان افتراضيًا، ارتخت قدماي قليلا، ولكني أعدت نفسي للواقع بالنظر في ساعتي.

كان الموعد على شاطئ بعيد وشبه خال، وفي هذا البرد بدا لي أن شيئا ما خاطئًا في العنوان، بعد خطوات قليلة على الشاطئ رأيت عروسين،

تُلتقط لهما الصور، كنت أرى ظهر «أمجد» وشعره الطويل، يرتدي ملابس ثقيلة، وحين يلتقط الصورة يميل للأمام كالآخرين، لم أستطع التوقف عن مقارنته بآدم، ترتدي العروس فستانًا من الساتان بشريط أسود، تحمل باقة من التيوليب، بينما على جانبها بالونات سوداء، طار عقلي حين رأيت اللون الأسود، وضحكت في سري لأني مهما ابتعدت عنه، أجده يبحث عني، لم تثِرني جلسة التصوير، لم أشعر بحقيقتها، ليس بالدرجة التي أثارتني بها البالونات، بعد قليل لمحني «أمجد» ولوح لي من مكانه، لم أقترب بل تركته يُنهي عمله.

بعد نحو نصف ساعة رحل العروسان في سيارة مُزينة، وأخذ مساعدوه في جمع البالونات والأزهار وكل ما ينفي حقيقة أننا على شاطئ لا يقترب منه أحد.

توجهت لأحد المساعدين وطلبت بالونا أسود، وجهت حديثي لأمجد: فكرة رائعة، استخدام اللون الأسود

فقال «أمجد»: لهذا أحضرتك هنا، خمنت أنك ستحبين الفكرة... كنوع من الاعتذار

ـ لستَ بحاجة للاعتذار، ما قلته حقيقي، كنت أنانية وسخيفة، أبحث عن شخص أقرب للصورة في خيالي، ولم أنتبه أنها قد لا تكون حقيقته، ما أعرفه عنه، وما قاله عن نفسه، قِطع أُحجية صغيرة للغاية، لن تقترب من الصورة الكاملة.

قال بينما يسير بجواري: الحقيقة أني بدأت أشعر بالقلق، لقد طالت المدة هذه المرة، وليس له أثر، من عادته بعد غياب هكذا، أن أستيقظ على

صوره في بريدي الإلكتروني، أو ينتظرني على القهوة ليحكي مغامرته الأخيرة، لكن هذه المرة لا شيء، حتى «أسود» لم يسأل عنه.

ـ هل تعتني بأسود من أجله؟

ـ قبل مقتل «عرفان»، أعني قبل معرفتنا بالخبر، كان يعمل على مشروع لأطفال الشوارع، كان يقضي اليوم كله في الخارج فيترك «أسود» لأعتني به.

ـ هل يمكن أن أراه؟

ـ بالتأكيد، اسمعي،لا تلومي نفسك، «آدم» لا يتحدث عن نفسه كثيرا، كل ما نعرفه عنه يعود لطول المدة التي قضيناها بجواره، ومن أشياء يقولها أحيانا كرغبة في ثرثرة تأتيه بلا مقدمات، لا يقول الآخرون دائما ما أنتِ بحاجة لسماعه، ولا يفعلون ما تحتاجينه، هم يتصرفون وفقا لطبيعتهم، تلك الطبيعة التي قد تفسرينها بما يناسب أوهامك، لذا عليك معرفة طبيعته لتتجنبي أي مفاجآت، السؤال هنا: هل آدم الذي التقيتيه هو من نعرفه، أم من كنتِ بحاجة إليه ذلك الوقت؟!

أخذ الشتاء يضرب الإسكندرية بعنف، الأمطار بالكاد تتوقف، وأغرقت الأمواج قلب الشوارع الرئيسية، بينما استمر انقطاع الكهرباء لفترات طويلة، كنت أحب كل ما له علاقة بالشتاء، صوت تساقط المطر، رائحة الأرض بعد انقطاعه، الإضاءة الخافتة في الظلام، وشعور يعتريك بأنك على استعداد للتصالح مع العالم، إلا أن الشيء الذي لم أكن على استعداد تام للتصالح معه كان الوحدة، تأتي كالوَخز، ضئيلة، صغيرة، ثم تتفاقم لتتملّك كل شيء، يمدني «أمجد» ببعض الأخبار من وقت لآخر، لكن لا جديد، شعرت بالإسكندرية تغرق بالفعل، يبتلعها البحر، ولن أتمكن من العثور فيها على «آدم» أبدا، أفتقد الحديث إليه، وتذكرت أنه يحب الاستماع لشوبان حين تنقطع الكهرباء، لفالس الوداع تحديدا، استعنت بهاتفي ولم أكترث لتوسلات بطاريته، بدأ الصوت ينسجم مع صوت ارتطام المطر بزجاج الشرفة، ومع طعم القهوة في ذاكرتي، انكمشت على الكرسي بالقرب من الشرفة، مُلقية رأسي للخلف، ومستسلمة تماما، تاركة مخيلتي تستحضر «آدم «من مكانه، وتُجلسه معي، يعد لي مزيج القهوة خاصته، شعرت لوهلة أن الزمن توقف، ضاع في رائحة القهوة والمطر، في فالس شوبان، وقريبا من بحر الإسكندرية، تمنيت لو بإمكاني أن أضع كل شخص أحبه في

غرفة، ثم أتجه للركن وأغفو، مُستمعة لصوت أحاديثهم، تحوي الغرفة زميل دراسة قديمًا أحببت النظر إليه، الرجل الذي كسر قلبي، والآخر الذي ربت بيديه على كل الجراح القديمة فالتأمت، سأشاهد عائلتي كلها بنصف عين بينما أغط في النوم، سأنظر في عيني فتى وسيم رأيته مصادفة في الطريق والتفت متطلعة إليه بحسرة لأني لن أراه ثانية، أشاهد مُناكفات أصدقائي، تتراكم ألعابي وكتبي في رُكن من الغرفة، رُكن يأتي منه صوت فيروز مُحمّلا برائحة الياسمين، سأجعل صوت أمي آخر صوت أسمعه، ثم أجدني فجأة أبحث بعيني عن البحر، هل نسيت أن أضع البحر في الغرفة؟!

ربما هنا في هذه اللحظة تأتي أنت، حاملا القهوة بينما يمتد خلفك البحر الأزرق...

تلقيت اتصالا جديدا من «أمجد»، أخبرني أنه تحدث إلى «سارة»، وأنها لا تمتلك أي فكرة عن المكان الذي ذهب إليه «آدم»، وأنها مثله تُرجح اختفاءه قسريًا، فربما بعد سماعه بوفاة صديقه من التعذيب، جُنّ فأقدم على عمل ما، أعطته أسماء بعض الصحفيين والقلائل العاملين في منظمات حقوقية، فسارة كالكثيرين، تم إغلاق مقار منظماتهم وغادروا إلى بلادهم، حين يئسوا من الوضع، حين أصبح التعذيب وكتم الحريات لا يُحتمل، كما أخبرني بمروره مبكرا، سيصطحبني لرؤية «جميل»، المُعلم الذي حدثني عنه، والأب الروحي لآدم كما أسماه، ثم أغلق الهاتف متمنيا ليلة سعيدة، لكنها كانت بالنسبة لي أقل من سعيدة، ليلة يُطغى عليها الحنين، وللغياب حضور قوي، عدت لمكاني تاركة الخدر يسري

في جسدي مع صوت الموسيقى، وأرسلني صوت المطر في نوم حلمت به بأحب رَجلين لقلبي، أبي وآدم.

حَلمت بالمطر ينهمر بغزارة، بالسماء ترعد، ورأيت ضوء البرق، كنت مبتلة، أرتعد على السطح، مازلت أرتدي ملابسي الصيفية، يلتصق شعري بوجهي، لا أستطيع تحديد الوقت بدقة، لكن ما أعرفه أني كنت وحيدة وخائفة.

داعبت أنفي رائحة قهوة مألوفة، تلفت حولي باحثة عن صاحبها، حين أدرت وجهي كان والدي يقف بجواري، لم أحلم به منذ فترة طويلة، ولولا تأملي لصورته من وقت لآخر لنسيت كيف يبدو، كان واقفا بهدوء كعادته، دون أن يزعجه المطر المتساقط، أو تلوُّن السماء، مُرتديا الملابس ذاتها التي أرتديها، والتي تناسبه بطبيعة الحال أكثر مني، تلمع عيناه بابتسامة أعرفها جيدا، شعرت بالغضب يزداد في صدري، لطالما لُمته على رحيله، كأنه له يد في موته، ربما لأنني ظللت لفترة طويلة لا أتقبل الفكرة

ثم اكتشفت أني لا أذكر صوته، يمكنني استعادة ملامحه من الصور، لكن كيف أستعيد صوته؟ كيف أستعيد خط يده؟ رائحة عرقه؟ والتفاصيل التي تبهت تدريجيا حتى تختفي، ثم ألوم نفسي لأني لم أحتفظ بها جيدا.

وكأنه أدرك مأساتي، جاء صوته من بعيد، ربما تحمله غيمة مطيرة، أو ممزوج بصوت الرعد، لكنه مع ذلك مُشبع بالدفء، قال: مازلتِ تائهة.

ـ لقد تركتني ورحلت!

ـ كان يجب أن أرحل، لم يكن لدي خيار.

ـ اكتشفت بعد موتك أني لا أعرف كيف أتخذ قرارًا، كيف أختار، كان من السهل أن أتركك تقرر من أجلي، ثم ألومك بعدها، أما الآن لا أعرف أين أذهب.

ـ لذا عدتِ هنا هاربة؟

ـ لقد تركتني ورحلت! مثله تماما!

ـ ما زال هنا، بجوارك، يشرب القهوة.

قالها مشيرا للجانب الآخر، وحين استدرت لم أر حدا، فعدت أنظر لأبي فوجدت «آدم» يقف مكانه، حاملا القهوة.

في كل مرة أحلم به يختفي مَلمح من وجهه، يُمحى أو يتوارى خلف شيء ما، كأن يقف خلف الكاميرا، أو يحمي وجهه بيديه من الشمس، أو يتحدث إليّ دون أن يستدير ناحيتي، تلك الملامح الناقصة في الحلم تفزعني، وتحوله لكابوس، طيلة نومي أحاول تذكر لون عينيه، ثم ابتسامته أو نبرة صوته وأجدني عاجزة عن تجميع صورة له، ثم أحلم أني أمر به في الطريق من دون أن أتعرف إليه، فيراودني إحساس أن هذا الرجل الذي مر بي الآن هو أهم من مر في حياتي، وأني أبدا لن أستطيع تذكر لمَ أنا مَدينة له لهذا الحد.

جدي لأمي هو أغرب رجل التقيته، وربما هو أقوى دليل لدي على أن الجنون إرثٌ في عائلتنا، من الوهلة الأولى تظنه رَجلاً وَرِعًا، يَنبثق النور من وجهه، تتدلى لحِيته البيضاء لتصل لبنطاله، كما تستقر علامة الصلاة على جبهته، فلقد ظل لآخر يوم في حياته يؤدي الصلاة في الجامع، بعد أن تتجاوز الورع في شكله الخارجي ويفتح فمه للحديث، تنساب الألفاظ الخلاعية والنابية منه، كما كان كثير السُباب أيضا، لم يُوقر أي شخص لا كبير في السن ولا صغير، ولم يأخذ في اعتباره المكانة الاجتماعية لأي شخص، كثير المزاح، وكل نِكاته خارجة، كما كثرت علاقاته النسائية.

كل شتاء حين يصبح برد الإسكندرية لا يُتَحَمَّل، تجتمع العائلة حوله، بينما يوقد بنفسه نارًا صغيرة من الحطب، نلتف حولها جميعا، نستمع له يحكي عن مغامراته وعن كل النساء اللاتي عشقهن، لم يكن ذلك ليغضب جدتي، لأنها تعرف أنها آخر امرأة دخلت قلبه واستقرت هناك، ومع ذلك كان شديد الحرص ألا يؤذيها فيما يحكيه، حاول الكبار منع صغار العائلة من الإنصات إليه، أو تنبيهه ألا يتمادى أمامنا كثيرا، ولكن كعادته يفعل ما يحلو له.

ذات شتاء انشغل الجميع في مشاهدة مباراة كرة قدم، بينما جلس

جدي يغفو بجوار الموقد المشتعل، انسللت من بينهم وذهبت أتدفأ بالنار الصغيرة، كان وجهه متوهجًا يضج باللون الأحمر، لكن ما لفت نظري هو أني أحببت النظر إليه، ليس لوسامة متبقية من شبابه، لكن لذلك الهدوء الذي يبعثه في داخلي، تأملته قليلا وهززت رأسي كأني أدركت السبب الذي جعل الجميع يغفر له كل شيء، فهو لم يفقد احترام أحد ولو لوهلة واحدة، فتح عينيه كأنه كان يراقبني، ونظر إليّ حتى كدت أرتجف، ثم ابتسم كاشفًا عن أسنان ناصعة البياض، قال بصوته الأجش «منذ نظرت في عينيكِ أول مرة رأيته».

ـ ماذا يا جدي؟

ـ سأخبركِ سرًا...

اقتربت منه، واضعة أذني بجوار فمه

ـ لأني أخاف الوحدة كثيرا.

ـ لا أفهم.

ـ لأني أخاف الوحدة عرفت كل هؤلاء النساء، ولنفس السبب أحب النوم مُنصتًا لحديثهم وصخبهم، ألم تتساءلي في داخلك عن السبب من قبل؟

هززت رأسي ثم سألته: ما الذي رأيته في عيني؟

ـ أنكِ تخافينها أيضا، تُراقبين الجميع، تنخرطين معهم دون أن تتورطي حقا، كأن خوفك يبقيك على مسافة، تُدركين أنكِ شديدة الحساسية، فتعزلين نفسك في الداخل. ثم نكزني بإصبعه في صدري

«في أقصى الداخل» قال مستعيدا وضعية النوم:اذهبي الآن، توقفي عن المراقبة والتساؤل.

في اليوم الذي مات فيه جدي، بدا أن العالم تآمر عليه ليموت وحيدًا، فلقد خرجت جدتي لتزور جارة مريضة، وذهبت عمتي للتسوق، البيت الذي لم يكن يخلو من الصخب، أو الركض هنا وهناك، تحول في لحظة موته لدار أشباح، قالت جدتي إنها رأته عند عودتها يُحدق بالباب مَيتًا، ربما كما فسرت هي الأمر على أنه انتظار لها، وربما كما فسرته أنا، كان يبحث عن وَنس، وحين بكيت لم أُبكِ خسارته فقط، بل بكيت الرجل الذي رغم كل محاولاته مات وحيدًا، وربما خائفا.

كل شتاء أفكر أن أشعل نارًا صغيرة في موقد، لتبعث الدفء داخلي، أو لتذكرني بالأيام القديمة حين التفت العائلة حول نارٍ واحدة ورجل واحد، ولكني أُدرك أني مثله تمامًا سأموت وحيدة وخائفة...

في سنٍ صغيرة أخذت أنظر لمُعتنقي الوحدة بعين الإكبار، رأيتُ أن لديهم من القوة ما يجعلهم مُكتفين بذواتهم، مُحتفظين بأكثر عوالمهم سرية لأنفسهم، كأن لتلك النفس قُدسية سيُدنسها الآخرون، وربما بسبب ذلك شعرت برغبة في العزلة، ثم وجدتها هي أيضا تبحث عني، لم أنسجم بسهولة مع المحيطين بي، أشاركهم اللعب والمرح ثم تأتي لحظة أصاب فيها بالفتور من كل شيء، كأني مُرهقة من الداخل وأريد الاختباء في ركن لأرمم نفسي، كما ضجّ رأسي بأسئلة كثيرة، لم يَعيها رفاقي بعد، وتجنبها الكبار بضراوة كأنها الموت، لم أكن صغيرة كفاية لأندمج مع رفاقي، ولا كبيرة كفاية لأترفع عنهم، لم أكن أيضا أفضل منهم، ولا أسوأ، كنتُ... كنتُ أنا، وتساءلت هل يأتي يوم يتقبلني فيه الآخرون كما أنا دون نبذي أو إعادة تشكيلي؟ لكن ذلك لم يحدث قط، استمررت في جلد ذاتي غير قادرة أن أُشبه من حولي، وعاجزة عن الاكتفاء تماما بها، تجرعت الوحدة، مُدركة طعمها المُر بعد انتصاف الليل، في أعياد الحب، في أيام مرضي، وفي الأوقات التي أحدق فيها لهاتفي الصامت دون أن يَرد اتصال، دون رسالة واحدة.

حين يبدأ الاكتئاب بجمع أشيائه ليغادر في رحلة قصيرة، تجد نفسك واقفًا على باب عقلك، متسائلا: ماذا أفعل الآن؟ من أين أبدأ حملة النظافة؟

في الأسابيع الماضية كان عقلي متسارعًا، كأني أركض في متاهة تتمدد تدريجيًا دون أن أتمكن من العثور على مَخرج، الأفكار تتزاحم في رأسي، وتتفرع، كأن الطريق الواحد ينقسم لطرق فرعية كثيرة في اتجاهات مختلفة، وأنا واقفة دون القدرة على السير في طريق واحد، ينتهي اليوم بي مُتعبة دون أن أتقدم خطوة واحدة.

لذا كرهت اللحظة التي أشعر فيها أن الاكتئاب ذاك المقيم في رأسي بفوضاه، على وشك المغادرة، تاركًا لي مهمة التنظيف.

لدي ذكرى واضحة عن بدأ حالة الفوضى تلك، حينها كنت في المدرسة الإعدادية، واقفة بجوار ملعب السلة، في ظهيرة شهر إبريل، أعتقد في آخره، حين يتداخل الربيع مع بقايا الشتاء، انتهى اليوم الدراسي ووقفت بجوار الملعب أتأمل المبنى القديم، لم أحب مدرسة كمدرستي الإعدادية، شاسعة بملاعب كثيرة، وبمبنى قديم بناه الإنجليز وظل في مكانه لا يشيخ أبدا، وقفت أحدق إليه كأنها أول مرة، حقيبتي تُثقل على

ظهري، أستمع لصوت ضربات الكرة، وترديدها على أرض الملعب، رغم مثالية الجو والمكان، فاجأني شعور بالخوف، كانقباض مفاجئ في عضلات شعر رأسي، أو إحساس بهواء دافئ يلامس عنقي، شعرت أني تائهة، ولوهلة نسيت من أكون، ونسيت الطريق للبيت.

لم أحدد ماذا أريد فعله حين أكبر، أو أين أتجه، لم أعرف إن كنت وقعت في الحب من قبل أم لا، ظننت حينها أن الوقت باكر على طرح الأسئلة، لكني أذكر وقوفي مشدوهة للمبنى بينما تنساب الدموع على وجنتي دون أن أمتلك تفسيرا واحدا.

مازلتُ أفتقد «آدم» ولا أعرف تحديدًا ما الذي أفتقده أكثر، ربما كيف يجعلني أشعر حين أتحدث إليه، لَم يكن بيننا ذلك الصمت المزعج، فحين نتوقف عن الحديث ونفرغ من المواضيع الكثيرة التي تشغلنا، نجلس بهدوء ونرتشف القهوة، كعجوزين سافَرا معًا عبر العالم، ذاك الإحساس يأتيك مرة واحدة في العمر، وحين يفعل يعلن عن نفسه بوضوح، حين يستمع لي يخفض عينيه ويبدو كما لو يُركز نظره على مكان ما في الأرض، ثم تأتي ردود أفعاله كابتسامة استحسان خفيفة، تنهيدة طويلة، أو حتى فرقعة أصابعه، جعلني أتفهم كيف تبتسم بعض النساء لصوره، وكيف يبدونَ على طبيعتهن، إنها رُجولته التي تقطر من أطراف أصابعه والبادية بشدة في التجاعيد العميقة بوجهه، لم تكن تلك التجاعيد لرجل في بداية الثلاثينات، ولكنها أضافت له الكثير، وكلما فكرت أكثر ازدادت حيرتي، لماذا كلما نظرت إلى وجهه شعرت بثِقل غريب؟ ولماذا يبدو على قربه مني، حتى لو على امتداد أصابعي، كأنه في جزيرة بعيدة، لا يمكنني العبور إليها؟

ومع هذا كان احتياجي إليه كاحتياجي للطعام، كلما طالت مُكابرتي ازداد نهمي له حين أُقبل عليه، حتى جسدي يفتقد القهوة التي كان يُعدها...

أين هو الآن؟!

انقضت عدة أيام دون أخبار جديدة عن «آدم»، بدأت أرتعب، كأني استيقظت فاقدةَ القدرة على التماسك، أو سقطت في حفرةٍ في مكانٍ خالٍ ولا أمل من نجاتي، ازداد اضطراب نومي، وأخذت أفقد شهيتي تدريجيًا، وتيرة الاكتئاب تتسارع مع تزايد نبضات قلبي، وأصبحت كمن يقف على أطراف أصابعه في انتظار خبر سيئ، التفكير في احتمال اعتقال «آدم»، وإلقائه في زنزانة إسمنتية، تدفعني بقوة للاصطدام بكل مخاوفي القديمة، لأُدرك للمرة الأولى وحدتي دونه، لم أتقبل فكرة أن أكثر رجل نابض بالحياة التقيته يتوارى في سجن ما، دون قهوته، دون الكاميرا، ودون البحر الذي اعتاد السكن بجواره، أقضي طيلة الوقت في الشرفة، أشعل سيجارة بأخرى، أتناول كميات كبيرة من القهوة، أصابعي مسودة ورائحة أنفاسي كريهة، انهارت معدتي أمام كل ذلك التوتر، فشعرت بالعصارة في حلقي، بينما لم أتوقف عن مراقبة الهاتف دقيقة واحدة، أحدق في باب البيت منتظرة اللحظة التي سيُركل بها، وسيدخل الاكتئاب بجسده الثقيل وكرشه المُتدلي، ولُغدُه يغطي عنقه، وتتصاعد من بثور وجهه رائحة عَطِنة أذكرها جيدًا، سيجلس على أريكتي المفضلة، دون حتى النظر إليّ كأنه يحتقرني، كرجل تزوجني فقط ليمتص الحياة مني، تملأ البيت سحب دخان سجائره الرديئة،

يستمع لأغاني المهرجانات الصاخبة التي تُصيبني بصداع، ثم يَفرك كرشه على إيقاعها، ترتفع العصارة في حلقي أكثر فأوشك على التقيؤ، ثم تأتي ذكرى «آدم»، لا أعرف كيف، ربما بالطريقة ذاتها التي يدخل بها هواء البحر من الشرفة، أو كما تتذكر صديقًا لم تره منذ زمن، أو ترى وجها مألوفا لحظة عبورك الشارع ثم يختفي...

تذكرت ذلك اليوم، قضيت ليلته في نوبة بكاء لم تنتهِ، وبقيت شبه مستيقظة حتى الصباح، ففوت موعدي معه، فإذا به يطرق الباب بصخب، ودون كلمة واحدة يمد يده ناحيتي، ويصحبني في الطريق لدار السينما القريبة، رثة، بعينين متورمتين، وملابس أبي القديمة على جسدي، يجلس بجواري في القاعة شبه الخالية، رافعا قدميه أمامه، مُحدقًا بالشاشة، من وقت لآخر ينهض ليشتري لي طعاما، أو يشتري قهوة، يُنهيها ويبدأ بسبّ صانعها ومذاقها السيئ، لم أشعر بنفسي إلا نائمة، وكأني في فيلم طويل بلا فواصل، لا أعرف إن كان رأسي قد لامس كتفه، إلا أني أذكر أن رائحته رافقتني طوال نومي، حينها أدركت للمرة الأولى أني واقعة في حبه.

اكتشفت أني لستُ بحاجة للحب، بل بحاجة لمن أتحدث إليه، أحيانا تمر على بعض الأوقات أقدس فيها الصمت، كأني أشاهد نفسي من مسافة، بحذر، دون تدخل، دون إحداث صوت، وأحيانا أخرى أشتاق أن أتحدث لشخص ما، لا أملك فكرة واضحة عن نوع الحديث، أعني لن أتحدث عن عدد المرات التي كُسر فيها قلبي، أو نوبات الاكتئاب التي تُصيبني، أو كيف أكره أوقات الظهيرة، ولن أتحدث أيضا عن وحدتي، لا عن السلام العالمي، ولا عن رغبتي في تقمص حياة دُب الكوالا، أو تشابه شخصيتي مع بطوط.

أريد أن أتحدث عن رائحة زهر البرتقال العالقة في الجو أول الربيع، عن اللمعة في عين أبي، الطعام الذي تعده أمي، وصوتها حين توقظني، مذاق قهوة «آدم»، وانعكاس الشمس في عينيه، أردت أن أتحول من الداخل لطفلة صغيرة، تُراقب العالم من بعيد، دون حماس، دون رغبة أن تكبر لتشارك فيه، سئمت مواضيع الكبار، الحديث عن الزواج والحب، التحليلات النفسية، ما الذي أريد فعله، ولماذا أرغب في تحطيم نفسي، لكني سأظل أتساءل دائما، لماذا أريد أن أعرف ذاك الشعور، أن يقوم «آدم» بـ...

تصفحت معظم المقالات التي كتبت عن «آدم» و«عرفان»، بعض المقالات الحديثة كانت تندد بترك حالته الصحية تسوء لدرجة وفاته بفشل كبدي، لم يتلق العلاج ولم يتم إسعافه قط، لعرفان صورة تكررت كثيرا مع المقالات، يعلق فيها الكاميرا حول رقبته، ويبتسم ابتسامة واسعة، كانت آخر صورة التُقطت له قبل أحداث فض رابعة، التقطها زميل له في الجريدة، كذكرى قبل قيامه بهذه المهمة، التي تُعتبر عادية جدا بالنسبة لصحفي، اشتعلت السوشيال ميديا بعد وفاته، تنديدا بالحادث وبمنع العزاء، استمرت تلك الضجة فترة، ثم هدأت، وكأنه أُلقي في قاع بئر عميقة وترك ليتعفن، الأخبار الجديدة عن «آدم» كانت تتعلق بصوره أكثر، تحقيق استقصائي في بلد ما، جائزة هنا، جائزة هناك، لم يكن له أي نشاط سياسي حديث، آخر نشاط كان له، حين كان البلد تحت حكم الإخوان، مقال كتبته «سارة»، تتحدث عن قمع الحريات حينها، وتندد بعدم السماح له بالخروج لدفن والده أو لزيارة أمه الملقاة في العناية المركزة، النبرة في المقال كانت أنثوية وممتلئة بالتعاطف، يمكنني التخمين أنها كونت مشاعر تجاهه حين جلست لتكتب المقال، هناك صورة أخافتني حين رأيتها أول مرة، تراجعت بعيدا عن الحاسوب حتى كدت أقع عن الأريكة، «آدم» أو ما بدا كشبحه وقف بين «سارة»

و«أمجد» و«عرفان»، الجميع يبتسم احتفالا بخروجه من المعتقل، إلا هو، هزيل فقد وزنه كله، لحيته طويلة، ومشعثة، ويرتدي ملابس خفيفة لا تناسب الجو، حينها مرت في بالي فكرة، ربما لكثرة تعرضه للبرودة في المعتقل، لم يعد يشعر بشيء حوله.

وكأني أُمسك بطرف طائرة ورقية تَنسل بين أصابعي، أو أضع في راحة يدي حبات رمل ناعمة، أشعر به يبتعد، وبالمسافة تزداد بيننا، وربما يأتي صوتٌ خافت، يهمس في داخلي أني لن أراه ثانيةً، وأن تلك الأيام لن تعود أبدًا، ربما اعتمدت على صوته كثيرا، أوعلى الرسائل المُتبادَلة بيننا، على ذلك الإحساس الذي يَخلقه بداخلي، أنه هناك في مكان ما، مكان أعرفه جيدًا، يطل على البحر وتفوح منه رائحة القهوة، رَجل يُفكر بي، يُراسلني، وبشكل أو بآخر يهتم لأمري، لن يتركني فريسة لأفكار سيئة، أو أشباح مخيفة، سيبقى يُحادثني لأنام، أو لأقطع اليوم الطويل الممل، سيحكي لي عن آخر رحلاته والصور التي التقطها، وحين يخبرني أنه التقى فتاة جميلة وغازلها، سينقبض قلبي، ثم أذكر نفسي: هاي، يكفيني أننا أصدقاء...

ذهبت مع «أمجد» لزيارة «جميل»، لا أنكر أن دافعي الأكبر كان التعرف إلى الرجل الذي يعتبره «آدم» والده الثاني، كان الوقت باكرا جدا، فلم يطلع الصباح بعد، أخبرني «أمجد» أنه معتاد على شرب القهوة في هذا التوقيت مع تلاميذه، ولطالما اجتمع مع ثلاثتهم صباحا، مازلت نصف نائمة حين وصلنا لشارع قديم، كل بيوته منسية منذ سنين مضت، على كلا جانبيه أشجار كثيرة، تطل من خلف البوابات الحديدية لبيوته أشجار الياسمين، الجو منعش والشارع هادئ حيث الصوت الوحيد كان لباب السيارة حين أغلقته، في البداية وقفت قليلا أحدق في البيت الذي اتجهنا إليه، كان يشبه لحد بعيد البيت الذي مررت عليه كثيرا في شبرا، وطالما تخيلت منظره من الداخل، مد «أمجد» يده من خلال كُوّة صغيرة في البوابة ورفع المزلاج، ثم أشار أن ألحق به، لم تكن الحديقة التي تقبع أمام البيت كبيرة، يبدو أنها تمتد خلفه، وأن الجزء الصغير منها هو الذي مررنا عليه، بدت هزيلة وبائسة في هذا الوقت من العام، رن «أمجد» جرس الباب، انتظر قليلا ثم دفعه بيده، ثم وقف في نهاية الرواق الممتد أمامي، رواق طويل ومعتم، في آخره نور ضعيف للنهار الذي ما زال في بدايته، لحقت به، كان الرواق فارغا ينتهي إلى صالة واسعة، تحوي أريكتين تتناثر عليهما كتب كثيرة، وعلى الحائط عُلقت

بعض الصور، لم تكن صورًا شخصية، بل ذلك النوع الذي تجده في المعارض الفنية، وفي الواجهة وعلى النقيض من كل تلك الفوضى، حُفظت بعض الكاميرات في خزانة زجاجية بعناية شديدة، تنتهي الصالة بشرفة واسعة، تطل على الجزء الأكبر من الحديقة، يجلس في الشرفة رجل عجوز أخذ يتطلع إليّ، كان يرتدي مَنامة يغطيها بروب، ذكّرني بالذي امتلكه أبي حين كنت صغيرة، لاحظ «أمجد» ربكتي، فأحضر كرسيًا ووضعه في مقابل الرجل.

قال العجوز بصوت أجش: أخيرا التقينا.

دنوت منه وعندما اقتربت لم أشم رائحة كبار السن العطِنة، بل رائحة أقرب للتربة الندية، رفع يده التي كان يريحها على قدمه، مادًا إياها ناحيتي، رأيتها ترتعش، رعشة تزداد كلما اقتربت من يدي الممدودة للسلام، أخذت يده بين يديي كلتيهما، ثم أشار لي بالجلوس، بعد جلوسي استأذن «أمجد» ليعد القهوة.

شعرت بربكة كأني للمرة الأولى ألتقى بشخص من عائلة «آدم» الحقيقة، ولا أعرف كيف أقدم نفسي له، أو ماذا أقول؟!

ـ بعد اعتقال «عرفان» انقطع «آدم» عن زيارتي فترة، لكنه ظل يطمئن عليّ، لم ينسني قط، ليس كهذه المرة، ليست لديك أي فكرة عمَّا مر به، لا يحب أن يشرك الآخرين في ماضيه، هو من النوع الذي يتصرف على أنه بخير، ربما كبريائه يجعله مترفعا عن الشفقة، التي هو أبعد ما يكون عنها، حين اتصل بي «أمجد» يسألني عنه، أخبرته أني لا أعرف شيئا، توقعته أن يأتي بعد جنازة «عرفان»، لكنه لم يفعل، ولم أسمع منه، تماما كتلك الفترة.

ـ أية فترة؟

ـ الفترة التي تلت وفاة أمه، بعد اعتقال «آدم» بفترة، مرض والده، حاول أصدقاؤه مساعدته، لكنه كان واحدا كالكثيرين، كل جُرمهم أنهم رأوا ما حدث في محمد محمود، يجب ألا يمر هكذا، بعد فترة من مرض والده توفي، دون رؤية ابنه لمرة أخيرة، أصابت الحسرة أمه، قضت فترة في العناية المركزة ثم ماتت، بعد خروجه لم يتعاف نفسيا، لم نستطع حتى التواصل معه، تطلب مجهودا كبيرا من «سارة»، حتى يعود الرجل الذي التقيتِ به، هل تفهمين ما الذي أريد قوله؟

ـ ليس تحديدا.

ـ أريدك أن تعثري عليه، في البداية لم أشجع علاقتك به، كنتِ تشبهينه في تلك الفترة، وخفت أن تعيديه إليها، الأشخاص مثل «آدم» يجب ألا ينطفئوا، لأنه بخفوت ضوئهم تبهت كل الأشياء، يتوه كل شخص لمسوه أو التقوا به، لا أنكر أني خفت من تأثيرك عليه، ومن حديثك معه، أعتذر منك، لكن لم يكن لدي يوما ما أتحمل به من هم مثلك.

ـ مثلي؟

ـ لقد تزوجت مرة واحدة من سنوات طويلة، كان لنا ابن، مات طفلا، لم تنسه أمه يومها، لم تستطع ذلك، كانت تبهت تدريجيا، حتى ماتت قبل موتها بزمن طويل... يمكنك القول إنها مثلك تماما.

ـ إذا كنت سيئة لهذا الحد، لماذا وافقت على مقابلتي؟ ولمَ تريدني أن أعثر عليه؟

ـ لأنك الوحيدة التي يمكنها العثور عليه، ما بينكما، لا أعرف ماذا أسميه (ثم لوح بيده المرتعشة) لكني أعرف أنه لم يكن ليتوقف عن الثرثرة عنك، أعرف أنه يحب «سارة»، الجميع يعرف ذلك، لكن ما بينكما مختلف، لم تكن علاقة «آدم» و«سارة» لتستمر طويلا، لقد أرادت أن تتزوج وتحظى بعائلة، لكن «آدم» بعد كل ما تعرض له، لم يَعد طبيعيا أبدا، أشياء كثيرة فقدها في المعتقل، ببساطة كلاكما رأى الوجه القبيح للحياة، وتألم، الوجع أحيانا يعد رابطًا أقوى من الحب.

وضع «أمجد» القهوة ثم أخبرني أنه سينتظر في السيارة، توسلت إليه بعيني لكنه لم يهتم أو لم يفهم، تنهد العجوز، وأخذ يتأمل الحديقة، ظننت أنه انتهى وهممت بالمغادرة...

ـ بعد موت زوجتي، تأكدت أن الحزن يقتل، فكرهتها، شعرت أنها تخلت عني، لذا أقسمت لنفسي إني لن أستسلم مثلها، أنهكت نفسي أكثر في العمل، ثم بعد فترة، اكتشفت أن مكابرتي منعتني أن أمنحها الحزن الذي تستحقه، أصابني كِبَري بالخدر، وبشكل أوبآخر أخذت أشبه زوجتي، يجب أن تدعي الحزن للداخل لكن لا تجعليه يقيم، لا تمنحيه ما يجعله يظن أنه مرحب به، آمني بانتهاء الأشياء السيئة كإيمانك بحدوثها، ثم حاولي تذكر يوم استيقظتِ فيه ووجدتِ العالم كما يجب أن يكون، يوم كانت فيه القهوة كما تحبينها، الراديو يُذيع أغنيتك المفضلة، وحين نظرتِ من الشباك بدا انعكاس الضوء مثاليا، ثم يدعوك عزيز لديكِ لشرب الشاي باللبن، يخبرك بكل ما أردتِ سماعه بينما ترتدين ثيابك المفضلة، فأيام كهذه تمر أحيانا.

مرت أيام كثيرة لا تحمل جديدا، لم نستبعد أي احتمال، لا احتمال دخوله في نوبة اكتئاب في مكان ما، ولا احتمال اختفائه قسريا، أو حتى مغادرته البلاد، كل هذه الاحتمالات تعني أنه ليس بخير، وحيد يواجه كل هذا دون صديق بجواره.

طلبت من «أمجد» أن ألتقي بالطبيب الذي عرفه «آدم» في الفترة التي تلت خروجه من المعتقل، خمنت أنه يمر بنفس الحالة التي مر بها من قبل، وربما يمكننا معرفة مكانه.

قادني «أمجد» لعيادته، نفس العيادة التي وقفت أمامها برفقة «آدم» منذ عام، حينها كنت أرتعد من الداخل بينما يدفعني «آدم»، مرة أخرى أشعر بالندم على عدم تصديقه حين أخبرن يعن معرفته بالطبيب، كان محقا، أنا لم أكن أرى أبعد من أنفي.

جلست إلى الطبيب، يدخل نسيم الليل البارد من الشرفة الواسعة خلف مكتبه، لم يتغير الكثير لكني أرى كل شيء بعين مختلفة، كأن ما مر لم يكن مجرد عام، بل مسافات طويلة قطعها عقلي، لا أفتقد ذاتي القديمة لكني أشعر بالحزن كلما تذكرتني جالسة هنا، أقول كل شيء، ألتقط أنفاسي، ترتجف أصابعي، يغطيني العرق في الشتاء، كدت أتوسل لأي شخص أن ينقذني، أن يخلصني من ذاك الذي أحمله على صدري.

لم أراهن على تذكر الطبيب لي، فأنا لم ألتقِه إلا مرة واحدة، لكن ابتسامته أوحت لي بالعكس، ربما يتذكرني كالفتاة المجنونة التي طرقت باب عيادته يوما ثم رحلت دون أن تعود ثانية، بعد عام أجلس إليه

لأرى الشعيرات البيضاء ازدادت في لحيته، وهم ثقيل يطل من عينيه، فحتى هو قابل للعطب.

في هذا التوقيت لم يكن سوى ثلاثتنا في العيادة، ينتظر أمجد في حجرة الاستقبال بينما أتحدث للطبيب، خلع الطبيب معطفه الأبيض، مال على مكتبه قليلا، نظر إليّ كأنه يريدني أن أبدأ الكلام لم أجد ما أقوله غير:

ـ لقد تذكرتني، أليس كذلك؟

ـ في الحقيقة نعم، تبدين أفضل.

ـ شكرا.

ـ قطع «آدم» معك شوطا طويلا.

ـ فعلا، لم أعرف حينها أنك كنت طبيبه أيضا.

ـ لأنه لم يستطع قط أن يحكي عما حدث معه، لذا كان علاجه صعبا ولم يكتمل.

ـ تعنى أنه لم يشفَ تماما؟

ـ للأسف، كنت أعمل مع «سارة»، أُقدم العلاج النفسي والتأهيل لضحايا التعذيب.

ـ تعرض «آدم»للتعذيب؟

ـ ماذا تتوقعين! كان في أكثر السجون قسوة، لا أريد أن أقص عليكِ ما يحدث في الداخل حتى لا تراودك الكوابيس، تعاملت مع الحالات الكثيرة، رأيت رجالاً يبكون، وآخرين فقدوا إيمانهم وتساءلوا:

أين كان الله حين حدث لنا كل هذا؟ بعض الأشخاص استعادوا إيمانهم بينما ألحد الكثيرون، انفصل بعضهم عن زوجاتهم، وهجروا أولادهم، أو غادروا البلد لأنهم لم يتحملوها بعد الآن.

ـ أي واحد من هؤلاء كان «آدم»؟

ـ كلهم، فقد الاهتمام بكل شيء، خَدِرٌ لا يعنيه أي شخص، ربما لولا وجود «سارة» بجواره لم يكن ليتجاوز ذلك، فقد الإحساس بجلده، تؤلمه أماكن الحرق، وفي كل ليلة ينام على الأرض عاريا، توقعتُ انتكاسته بعد انفصاله عن «سارة»، تَوقعتُ أن يتخذ معها أي خطوة، لكنه ليس لديه ما يمنحه لأي شخص، انطفأ الوهج بداخله، وظل مظلما.

ـ وفي تلك الفترة ماذا كان يفعل؟

ـ لا شيء، يستيقظ، يبقى مكانه على الأرض مُحدقا في السقف، ثم يعود للنوم دون تناول أي شيء، لم يغادر شقته حتى أخرجه «جميل» منها.

ـ هل تظن... أنه... ربما هناك الآن.

ـ احتمال.

خرجت مسرعة يتبعني «أمجد»، يسألني عما حدث، أخبرته، علينا الإسراع ومحاولة دخول شقته بأي طريقة، ربما بعد سماعه الخبر لم يغادرها.

ركضت على السلم متجهة لشقته، واضعة في ذهني كل الاحتمالات السيئة، أتخيله في ركن من حجرته، حزينًا ووحيدًا وصغيرًا، وقفت أمام الباب ألهث، أحاول دفعه بجسدي لكني عاجزة تمامًا، بدأت أبكي ممسكة بقبضته أتوسله ليفتح، لحق بي «أمجد»، وضع قبضته على

الباب وأخذ يدفعه بجسده فانفتح، ركضنا للداخل، بحثنا في كل الحجرات، لم نعثر عليه، عدت للتنفس وكأني مُنحت فرصة أخرى للحياة، خرجت من الشقة، مستندة إلى السور ألتقط أنفاسي، ثم جلست على السلم بجوار باب الشقة المفتوح، تفوح منها رائحة القهوة، الفقد بداخلي، يبدو كلكمة لقلبي، فراغ، أو تآكل شيء لا أتحمله ولا أستطيع تجاهله.

جلس بجواري «أمجد» ولدقائق لم نفعل شيئًاغير التنفس لأننا لم نتقبل ولن نتقبل فكرة أن نفقده، أو أن نعثر عليه على بعض خطوات منا دون أن ندري، ثم بعد قليل أخذ يحكي عن ذلك اليوم الذي سبق القبض على «عرفان»، اليوم الذي حدث في صبيحته الفض.

ـ في تلك الفترة بعد خروج «آدم» من المعتقل ولشهور كان يقيم مع «جميل»، أخذ الرجل العجوز يعتني به حتى تحسنت حالته، بعد أن توقف عن تبادل الكلمات معنا وحتى النظر إلينا بدأ يتحدث، لكنه لم يكن عاد للتصوير، ولم يكن يعد القهوة، ندرك أنه في طريقه للتعافي، مع هذا خفنا ألا يتعافى تماما ويعود لطبيعته، لذا كنت أنا من يصنع القهوة، كنت أجلس حينها على الأريكة في الحجرة، أقص واحدة من طرفات الأفراح على «جميل»، قطع حديثي طرقات على الباب، خمنت أنه «عرفان» وحين فتحت صحت توقعاتي، لكن لم يكن هو «عرفان» حقا، من فتحت له الباب يُشبهه، له نفس الوجه والملامح والجسد ونفس الكاميرا، لكنه في الوقت ذاته كان آخر، تفوح منه رائحة دخان وتتناثر على عنقه بعض القطرات الحمراء، دون أن يقول شيئا جلس على الأريكة، مُحدقا في الفراغ، علمنا أن سيئا قد وقع، لذا كان السؤال

حينها الذي طرحناه في داخلنا: هل نحن مستعدون لسماع ما حدث؟

ليمنحنا ويمنح نفسه الوقت، بأنفاس متقطعة وعين ذاهلة، يسيح المخاط من أنفه وينساب على قميصه، لم يحرك «آدم» ساكنا، بل جلس يراقب من بعيد، بينما اتجه له «جميل» ووضع يده على كتفه، وكأنه أعاده لعالمنا فأخذ يبكي ويصرخ، أفزعني، لم أرَ أحدا من قبل هكذا ولم أعرف ما عليّ فعله، رأيتني واقفا في مكاني، أتوسل بنظراتي لآدم أن ينقذ كل شيء كعادته، أن يمحو هذه اللحظة، أن يفعل المستحيل، لكن البطل الذي رأيته في الميدان يحمل الجرحى على كتفه، وينقذ الوضع، لم يعد بطلاً، لم يعد قادرًا حتى على إنقاذ نفسه، ما قاله يومها حفظته دون أن أدري، رغم أني حاولت لأسابيع بعدها أن أنساه، كلما سمعت تلك الأغنية التي رقصوا عليها، شعرت بالقرف والغضب.

نهض بعد وصلة البكاء والصراخ، غسل جسده وغير ملابسه، توارت رائحة الدخان والدم، جلس يحتضن ركبته بذراعيه، وكأنه لا يوجه حديثه إلينا قال:

ـ حتى الساعة السادسة والنصف لم نتوقع ماحدث، كيف يمكنك توقع هذا!أن يُفتح الرصاص الحي على الجميع، يتساقطون من حولي، تمر بجواري رصاصة على بعد ملليمترات، الدم في كل مكان، بعد أن استعدت توازني، توجهت للجامع في الساحة، رأيت النساء والأطفال يخرجون من الباب، بعد خروجهم بقليل، يُرمى من في داخله من الرجال بالرصاص، كيف أصف هذا؟! الجرافات التي تزيح الجثث، النار المشتعلة في بعضها، ثم تُعلق أوراقًا بيضاء على أعمدة الجامع، تقرأ فيها اسم أخيك، ابنك، أو صديقك الذي قتل، تذهب لتبحث عنه، ثم تجلس لتبكي بجواره

ثم رفع النظر عن الأرض موجها الحديث لآدم:

ـ كيف نعبر بحرًا من الدماء ونصل للجانب الآخر أنقياء؟

كان عليه العودة لتسليم الصور للجريدة، أوصلته لمحطة الرمل، تلك الأغنية كانت تأتي من كل مكان، احتفالا بالدماء، لم أتحمل هؤلاء الناس، في تلك اللحظة كفرت بهم جميعا كما لم أكفر بشيء من قبل، وفي اليوم التالي لعودته تم القبض عليه، حتى لحظة وفاته واظب «آدم» على حضور جلسات محاكمته، رآه يذبل، يمرض، وشيئا فشيئا ماتت القضية بداخله، انتهت، حينها قال لي: آمن أهالينا بعبدالناصر، لم يروا المعتقلين، ظنوهم الأعداء، من أرادوا الخراب، ورفعوا عبدالناصر على الأعناق كأنه البطل، اختلفت الموسيقى، واستمرت الأغنيات، ألم يغنِّ عبدالحليم

تماثيل رخام ع الترعة

وأوبرا في كل قرية عربية

مسح دموعه التي بللت وجهه، ثم قال قبل أن يغادر موجها ظهره لي:

ـ يستحسن إقامتك في الشقة لحين إصلاح الباب، فالكاميرات والعدسات التي في الداخل باهظة.

وقفت أعلى السلم في ضوء الشمس الغاربة، أستعيد كلمات الأغنية في ذهني، واكتشفت أني أشبه «أمجد»، لا أحمل في داخلي همًا لقضية، لإيماني أن كل القضايا خاسرة، ولا تستحق الثمن الذي ندفعه فيها،

فالأرض الملوثة بالدماء تُمنح كعطايا، الشوارع مكتظة بوجوه متجهمة، ألفاظ خادشة تُلقى على مسامعك، تراب يغطي كل شيء، تفهمت كيف لأمجد أن يقف على الحياد، مُشاهدا صاحبيه يتساقطان، من أجل قضية لا يؤمن بها.

«آدم» منذ اللحظة التي التقيته فيها حتى اللحظة الأخيرة التي تمشينا فيها على الشاطئ، كان يخفي وجها آخر، نُدوب يحملها في داخله، حمّلته بلاده أكثر من طاقته، أكثر من طاقة أي بشري، يُودع الصديق تلو الآخر، ثم يبتعد ليقف مشاهدا، مكتوف الذراعين، مطأطئ الرأس، كلما حاول الاقتراب، تفقّد ندوبه، افتقد والديه، وتساءل: هل تستحق؟!

المرأة التي أحبها لم يستطع أن يتزوجها، قُتل صديقه بلا رحمة، وفي مكانه حيث هو الآن ربما ما زال يتساءل: هل تستحق؟!

عدت لشقته، للمرة الثانية أضع قدمي فيها، لم تسمح لي حالتي النفسية بتفقدها في المرة الأولى، لذا ها أنا هنا الآن في عالمه الخاص، أقتحمه في غيابه، كما أخبرني من قبل، النوافذ مغلقة ليحتفظ برائحة القهوة داخلها، تُغطَّي الحوائط بصور كثيرة تتوسطها صورة لسارة، ما زال يحبها وأعتقد أنه سيبقى يحبها، الحوائط التي لا تغطيها الصور تملؤها الأرفف، تتراص عليها كاميرات كثيرة وعدسات مختلفة الطُرز والأحجام، تشغل شقته نفس مساحة شقتي، لكنها شبه خالية من الأثاث، تُلائم شخصًا احتُجز لفترة طويلة في مكان ضيق، في غرفة نومه السرير مُرتب كأنه لم يُمَس، تفرش الأرض مِلاءة وضعت عليها وسادة، فهنا إذا اعتاد النوم، فردت عليها جسدي ألتقط رائحته، أشعر كأني قريبة منه، قريبة كما لم أكن من قبل وبعيدة، بعيدة كأني لم أعرفه قط، الصور المعلقة على الحائط في هذه الغرفة مختلفة، فهي لا تشبه الصور في الخارج، ليست مبهجة مثلها، الصور هنا، لأجزاء من الجسد، أذرع، أقدام، ظهر، تُغطيها كدمات مختلفة اللون وآثار حروق، على الأرض بجوار الحائط عثرت على صورة لوجه تغطيه الكدمات، وجه أعرفه جيدا، وجه رجل أحبه، خمنت أن هذه صور لأجزاء جسده، هذا الجسد الذي لم أمسسه قط وربما لم تمسسه امرأة، تقلصت معدتي، تلوت حول

نفسها، ركضت إلى الحمام وتقيأت، أفرغت معدتي حتى من العصارة، بعد أن انتهيت جلست على أرض الحمام، أبكي، وأشعر بالضآلة، كأني حبة لوز أعلى قمة جبل تغطيه الثلوج في الصيف.

قريبا مني كان ينام في غرفته على الأرض، فاقدًا الشعور بالبرد، أو القدرة على تبادل الحب، غارقًا في الندوب، يفتقد صديقًا، وتسافر صديقته كي لا تخسره، ثم يفقد السيطرة على كل شيء، يتكسر آخر شيء في داخله، تماما كما حدث معي.

بينما أغسل وجهي على الحوض رأيت هاتفه، فارغ الشحن، عدت لغرفته أبحث عن الشاحن، فعثرت على البيت المصغر الذي منحته إياه قبل سفري، بينما أتفقده، وجدت في داخله صور، صوري التي لم أرها قط، وطالما ظننت أنه لا يراني جميلة كفاية ليلتقط لي الصور، في بعضها أضع رأسي على سور الشرفة، وبعضها أجلس فيه على السطح، أتمشى على الشاطئ، أو في المقهى أقرأ، لقد رآني إذن، ربما لم يرني كامرأة جميلة، لم يرني أكثر من صديقة، لكنه رآني كما لم يفعل أحد من قبل...

ثم صورتي مرتدية الجاكت الذي أهداه لي يوم سافرت دون أن أقول وداعا، التقط لي الصورة من ظهري، وأنا واقفة في مدخل العمارة، يحيط بي ضوء النهار من كل جانب، صانعًا إطارًا آخر للصورة، تلك طريقته في قول «إلى اللقاء يا عزيزتي» مُدركة غبائي أني ابتعدت عن صديقي لأني أردته أن يمنحني أكثر مما يستطيع، لأني أحببته أكثر، أو أحببته بطريقة مختلفة.

بعد إيصاله بالكهرباء، أضاءت شاشة الهاتف، تفقدت اتصالاته الأخيرة ورسائله، وهمست... لقد عثرت عليك!

أخرجت البطاطين من دولابه وضعتها على الأرض، تلحفت بها، السماء في الخارج تبرق وترعد، المطر لا يتوقف، وللمرة الأولى منذ وقت طويل، تخز الوحدة داخلي، وكأني لم أشعر بثقلها من قبل، مُحاطة بكل تلك الصور، مُحاطة بكل تلك الصور السيئة، برائحة القهوة وبعطره، في المكان الذي نام فيه كل يوم، بينما أنا في الشقة المقابلة أحارب شياطيني كانت له شياطينه وحربه الكبيرة، لبعض الوحوش قرون وثآليل برائحة عفنة، والبعض الآخر يشبهنا برائحة جسدنا، وبعضها بارد كأرض إسمنتية في حجرة ضيقة، تصيبك بكآبة وتطرف المزاج، أو تفقدك الإحساس بالطقس والحب، تملأ جسدك بندوب، تصيبك بفشل كبدي، فتصبح مجرد رقم آخر قتلته بزة لأنه اختلف معها.

أفتقد أبي، أمي، آدم، أصدقائي، كل شخص التقيته، وكل شخص لم أعرفه، أتوسل للجدران أن تحكي، أن تخرج الوجوه من الصور، أن يجلس الهواء بجواري، أو أن يدخل المطر من الشباك، ألا تكون الوحدة أثقل غطاء لي في الشتاء، بل في هذه اللحظة حيث أنا وحدي...

استيقظت قرب السادسة، مازلت أشم رائحة المطر رغم توقفه في ساعة متأخرة من ليلة أمس، بعد حمام سريع، وقفت في مطبخه أعد القهوة كأغرب فكرة راودتني يوما، لم أميز الأنواع الكثيرة التي يمتلكها، بل شربت من البن الذي أعجبتني رائحته، بعد أن عثرت بالأمس على مكان «آدم»، اتصلت بأمجد وأخبرته، اتفقنا على الذهاب إليه اليوم، حين نظرت من الشرفة بدت شوارع الإسكندرية غارقة في المياه، لا يمكنك العبور على قدميك ولا حتى باستخدام سيارة، السماء غائمة، ربما ستمطر ثانية، أصبت بخيبة أمل، لكني مازلت مصممة على الذهاب أيا كانت الوسيلة.

رن هاتف «آدم»، رأيت اسم «أمجد» على الشاشة، خفت أن يتراجع عن الحضور، أعرف أنه محق، لا ألومه، لكن أيا كان ما سيقوله لن يُثنيني عن الذهاب والعثور عليه.

ـ هل استيقظتِ؟

ـ نعم، اسمع، لو أردت ألا تذهب أنا أتفهم.

ـ ماذا؟ لا، أنا قادم في الطريق.

ـ كيف؟

ـ استعدي، سأكون عندكِ قريبا

بعد قليل رأيته من الشرفة جالسًا في قارب، يُجدف له شخصٌ آخر، حين رآني وقف ملوحا لي، فاردا يديه، مبتسما لهذا المشهد، لحقت به، بعد أن طلبت من البواب حراسة الشقة.

ذهبنا بالقطار للمنيا، ثم بعربة لملوي، وقطعنا بضعة كيلومترات في قلب الصحراء، حيث يقيم «آدم» في دير الخلوة، هكذا علمت حين اتصلت بآخر رقم في سجل الهاتف، في ٢٠٠٨ تعرض هذا الدير للهجوم، غطى «آدم» الخبر، وأقام بالدير فترة يتحدث للرهبان ويلتقط الصور، صورًا للمذبح والدير، بملائكة على الجدران، وبالعذراء تصلي، صورًا عن طريق متعرج في قلب الصحراء حيث يُذكر الله.

وقف أمجد ينتظرني في الخارج، بينما أخطو داخل الدير، لا أعرف أية حالة سأجده عليها، ولا أعرف ما عليّ قوله، كل ما أعرفه أني أفتقد القهوة مع صديقي...